غير مرخصة للطباعة

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

المجلد الثالث والسبعون

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

غير مرخصة للطباعة

المِحْوَرُ التَّاسِعُ
الشِّعْرُ والأَدَبُ والحِوَارُ

١٤٥ يوسف الصديق

١٤٦ نفحات ولفحات
ديوان شعر

١٤٧ المسلمون قادمون
ديوان شعر

١٤٨ عالم وطاغية
سعيد بن جبير والحجّاج بن يوسف

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

المحـور التاسع

الشِّعر والأدب والحوار

غير مرخصة للطباعة

١٤٥

يوسف الصديق

رواية شعرية تمثِّل ما جرى لسيدنا يوسف عليه السلام
مع أبيه وإخوته، ثم مع امرأة العزيز،
ثم مع الملك من البداية إلى النهاية

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(أمَّا بعد)

فقد كتبتُ مسرحيَّة (يوسف الصِّدِّيق)[١] وأنا في المرحلة الابتدائيَّة الأزهريَّة عن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، سيدنا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وقد تأثَّرت فيها بأسلوب أمير الشعراء شوقي، خاصَّة في مسرحيتيه الشعريتين (كليوباترا) و(مجنون ليلى).

وهذه المسرحيَّة أول عمل ألج به إلى المكتبة العربية، وقد شرعت في كتابتها وأنا في السنة الرابعة الابتدائيَّة، وأكملتها وأنا في السنة الأولى الثانويَّة.

(١) وقد أخبرني الأخ الشيخ عبد السلام البسيوني أنه قرأ في مقال للدكتور بهنام عطا الله عن مسرحية بالاسم نفسه، أخرجها داود الشورجي، من تأليف المطران سليمان الصائغ (١٨٨٦ ـ ١٩٦١م) عُرضت في العراق، ولها اسم آخر هو (مشاهد الفضيلة)، ومُثلت على المسرح بين عامي ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨م.

QaradawiBooks.com

وكانت المشـكلة في تكاليف الطبع؛ ولم أجد من يُعينني في ذلك غير قريب أقرضني مبلغ خمسـة جنيهـات، أعطيتها للمطبعة اليوسـفية بطنطا، وكتبت علـيَّ وَصْلًا بالباقي، وكان المطبوع كله خمسـمائة (٥٠٠) نسـخة، أهديت بعضها، وبعت بعضها في محيط طلبة المعهد والإخوان، وكان كل ما أهديته وبعته حوالي مائة نسـخة، وبقي نحو أربعمائة (٤٠٠) نسخة، فهيَّأ الله رجلًا اشتراها على ما أذكر بعشـرة جنيهات، سددتُ منها خمسة الجنيهات التي اقترضتها من قريبي، وسـددت باقي مبلغ المطبعـة، وقلت: الحمد لله الذي أخرجني سالمًا، لا ليَّ ولا عليَّ، فإن الدَّيْنَ هَمٌّ بالليل ومذلَّة بالنهار.

وقد أثنـت بعضُ المجـلات الأدبيَّة فـي حينها على المسـرحيَّة، باعتبارها تُمَثِّل نموذجًا من شعر الشباب، ونقلت فقرات منها.

كان هذا هو عملي المسـرحي الشـعري الأوَّل، ولقد عملتُ عملًا مسرحيًّا آخر في عالم النثر، وهو مسرحية (عالم وطاغية).

وللأسـف قد ضاعت مسـرحيَّة (يوسـف الصدِّيق) فيما ضاع من أشعاري وأوراقي نتيجة ما ألمَّ بي من ظروف الاعتقال والسفر وغيرها، ويسَّر الله أن وجدتُ هذا الجزء من المسرحية بين أوراقي، وللأسف لم نستطع أن نجد بقيتها[1].

ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يوسف القرضاوي

* * *

(١) بعد وفاة الشيخ رحمه الله، أحضر الأسـتاذ إبراهيم عبد الرازق، نسخة قديمة من المسرحية كان الأخ عابد شيخ محمد رحمه الله أحد تلاميذ الشيخ، قد استعارها من مكتبه من قديم، وفيها نقص يبدو يسيرا في آخرها، لعله صفحتان أو ثلاث.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

يا مَن رمَتْــهُ الليالي اصبــرْ لرميتِها
إن الــلــيــالــيَ والأيـــــامَ أدوارُ
فالجوُّ يصحو، وإن عمَّــت غمائمُهُ
والليــلُ يَعقُبُــه صبــحٌ وإســفارُ
وانظر ليوسفَ أضحتْ مصرُ في يده
وقبلُ فــي سِــجْنها انتابتْــهُ أظفارُ

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

الإهـــــداء

إلى مَنْ رَمَتْهُ العادياتُ بسَــهْمِهَا ... فباتَ يُعَاني الضُّرَّ إذْ عَضَّهُ الدَّهْرُ

إلى مَنْ طَوَاهُ العُمْــرُ وهْوَ مُعَذَّبٌ ... لَياليــه ســوداءٌ وأيامُــه غُبْــرُ

إلى مَن رماه الـهمُّ في جُبِّ حَيْرةٍ ... وأُدخِلَ سجنَ البؤسِ ليس له وِزْرُ

لمَنْ غـالبَ الأيـــامَ حتى غَلَبْـنه ... وظـنَّ مُحــالًا أن يـكون له نصرُ

إلى مَن جفـاه حِبُّــه وهْوَ هائـمٌ ... فظــلَّ كئيبًــا لا يَبَـشُّ لــه ثَغْرُ

وبات مَهِيضَ القَلْبِ في عينه قَذًى ... وفي صـدره جَمْرٌ وفي فَـمِه صَبْرُ

إلى ذلك الصَّــبِّ الذي ظلَّ عُمْرَه ... وســاعتُه شــهرٌ وليـلـتُــه دَهْرُ

إلى هـؤلاء البائـســينَ لِيَعْلمـوا ... بأنَّ مجـيءَ المَدِّ إذ يـنزلُ الجَزْرُ

إلى هــؤلاء الأشــقياء ليُوقنوا ... بأنَّ ظلامَ البــؤسِ يَخْلُـفُه فجرُ

إليهم كـتابًا من أخٍ ضِـيمَ مِثْلَهـم ... عسى أن تُعِـزِّيهم بشــائـرُه الغُرُّ

إليهم كـتابًا مِــنْ غَـرِيمِ زمانِـه ... فسَلْســلُه مِلْــحٌ وسُــكَّـرُه مُــرُّ

فــإن وجــدوا فيـه عزاءً وســلوةً ... فلي منهمو شُكْرٌ ومن بـارئي أَجْرُ

المؤلف

* * *

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

أشخـاص الروايــة

- **يوسف:** ولدُ يعقوب.
- **بنيامين:** شقيق يوسف.
- **يهوذا:** أخو يوسف من الأب.
- **شمعون:** أخو يوسف من الأب.
- **قطفير:** عزيز مصر وسيد يوسف.
- **زليخا:** زوجة العزيز.
- **راحيل:** أم يـوسف.

* * *

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

أمُصـــوِّرَ الأشـــكـالِ والأبـدانِ ... هلَّا تُصَـوِّرُ حِـكمتـــي وبـيـاني!
أتصَوِّرَنْ وجـهَ الرجـــالِ وتَتْرُكَنْ ... تـصويرَ ما بِهِمُو مـــن الْعِرْفانِ؟!
الـمرءُ ليسَ بوجـهِهِ أو جســمِهِ ... لكـــن بفكـــرٍ ثاقـبٍ ولـســانِ
لو كان قَـدْرُ المرءِ جسمًا لا حِجًى ... لسَـمَا عـليه الثورُ بالجُـســمانِ

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الفصل الأول

نسخة مجانية

انكشف برقعُ الليل عن وجه الصباح، فذهب يوسفُ إلى أبيه يقصُّ عليه حُلمًا رآه:

يوسف: رأيتُ من النَّجْمِ إحدى عشرْ سجودًا مع الشمسِ لي والقمرْ

يعقوب: بُنَيّ اكتُم السرَّ وادفنْه في فؤادِك كالميْتِ بين الحُفَرْ

وأغلِقْ عليه بقُفلٍ حديدٍ ولا تفتحِ القُفلَ تلقَ الضررْ

وإيَّاكَ إيَّاكَ من إخوةٍ إذا علموا طار منهم شَرَرْ

ينالون منكَ منالَ الحَسُودِ لِمَا يَصطفيكَ عليه القدرْ

وقابيلُ أروى الثرى بدِماء أخيه ولم يخشَ نارَ سَقَرْ

سيختارك اللهُ من بينِهم ويسقيكَ من فيضِه المُنْهَمِرْ

وهم كالنجوم قليلو الضياءِ وإنَّكَ من بينهم كالقَمَرْ

بين الحقول الناضرة يجتمع إخوة يوسف متحدِّثين في حبِّ أبيهم له من دونهم.

الإخوة: ألا ترونَ أباكم قد هام في الطفلِ عِشْقَا

يُقَبِّل الفمَ منه ويرشُفُ الرِّيقَ شَوْقَا

في حبِّ يوسفَ أمسى مُتَيَّمًا مُسْتَرَقًّا؟!

ونُحن نُقْبِلُ غُبْرًا ممَّا من الحَرِّ نَلْقى

فلا يَبَشُّ إلينا ولا نرى الوجهَ طَلْقَا

فكيف يَعْشَقُ هذا ونحن خيرٌ وأبقى؟!

ونحن نرعى شِيَاهًا ونحنُ نَسْعَى ونَشْقَى

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

ونحن نزرع أرضًا ونحن نَجْلِبُ رِزْقَا
باللهِ إنَّ أبانا لَفِعْلُه فِعْلُ حَمْقى
فما ترون لهذا فالخطبُ يزدادُ عُمْقَا؟!

شمعون: الرأيُ قَتْلُ ابنِ راحيـ ـلَ قتلَ من لم يَرِقَّا
أو تطرحوه بأرضٍ ولا تُخَلُّوه يبقى

يهوذا: لا تقتلوه

شمعون: لماذا أنت ترحمه؟

يهوذا: القتلُ فِعْلُ وحوشٍ ذاتُ أظفارِ

شمعون: فما تراه لنا، كي نستريحَ به؟

يهوذا: الرأيُ عندي رأيٌ غير ضرَّارِ
ألقُوه في الجُبِّ حيًّا حيثُ يَلْقُطُه مسافرٌ سائرٌ أو راحلٌ سارِ

كبيرهم: هذا هو الرأيُ رأيٌ نستريحُ به والرأيُ بالفكرِ لا بالسَّيْفِ والنارِ

صغيرهم: لكنَّ يعقوبَ لا يعطي ابنَه لكمو فكيف تُلقونه في الجبِّ والغارِ؟

يهوذا: بالمَكْرِ نأخذُه منه بلا تعبٍ والمكرُ يُوقِعُ ليثَ الغابةِ الضاري

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

يرجع الإخوة لأبيهم ثمَّ يقولون له:

يهوذا: أبي إنَّ يوسفَ وردةُ حُسْنٍ ... إذا حُبِسَتْ يعتريها الذُّبُولْ
ولا بدَّ للورد رؤيا الفَضَاءِ ... وشمِّ الهواءِ النقيِّ العَلِيلْ
فما لَكَ تَحْبِسُه كالسَّجِينِ ... ألا إنَّ ذلك سَجْنٌ يطولْ؟!
فأرسله معنا غدًا حيثُ نلهو ... ونَرْتَعُ بين جَمالِ الحُقُولْ
ليَنظرَ ما في الوَرَى من جمالٍ ... فإنَّ الجميلَ يُحِبُّ الجميلْ
ولا تخشَ إنَّا له حافظونَ ... وربُّ السماءِ الحفيظُ الوكيلْ

يعقوب: أخافُ عليه الذئبَ في حينِ غَفْلَةٍ ... فيأكله، والذئبُ بالطفلِ غادرُ

الإخوة: أيأكلُه ذئبٌ ونحن جماعةٌ؟! ... إذن نحن جمعٌ لا محالةَ خاسرُ

هاتفٌ يُسمع صوتُه ولا يُرى شخصُه:

جزاؤك يا يعقوبُ بيْنٌ وحُرقةٌ ... ودمعٌ هَمُولٌ منه تَدْمى المَحَاجِرُ
فكيف تخافُ الذئبَ والذئبُ عاجزٌ ... ولا تَرْجُوَنَّ اللهَ، واللهُ قادرُ؟!

يأخذون يوسف ليُلقوه في الجبِّ فيسمعون صوتًا، ولا يرون صاحبه.

الشيطان: اقتلوه تستريحوا ... وتكونوا آمنينْ
فغدًا إن يَبْقَ يخرجْ ... مع قومٍ سائرينْ
يأتِ يعقوبَ سليمًا ... كلُّه نورٌ مُبِينْ

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

حين ذا يغشاكمُ الخُسْـ ـرانُ والخزيُ المُهِينْ
فأطيعوني فإنِّي لكمو خِلٌّ خَدِينْ
واسمعوا نصحي فعندي لكمُ النصحُ الأمينْ
واقتلوه تستريحوا وتكونوا آمنينْ

يهوذا: يا عدوَّ الخالقِ اخسأْ أنتَ مطرودٌ لَعِينْ
تَدَّعِي أنَّكَ خِدْنٌ وصديقٌ لا يخونْ
ولعَمْرُ اللهِ ما أنـ ـتَ سوى الخَصْم المُبِينْ

شمعون: يا بَنِي يعقوبَ هيَّا فاطرحوهُ واذبحوهْ
ليس يَشفينا سوى القتـ ـلِ فهيَّا مَزِّقُوهْ
ليس رأيي غيرَ هذا فافعلوا ما شئتموهْ

يهوذا: ويلَكَ يا شمعونُ من غَدَّارِ ما أنت فينا غيرَ وحشٍ ضارِ
تريدُ قَتْلَه بلا افْتِكَارِ والقتلُ جُرْمُ السُّفْلِ والأشرارِ
نَقْتُلُه، وعندَ الادِّكارِ نظلُّ في همٍّ وفي أَكْدَارِ
إن لم تخَفْ عذابَ هذي الدارِ فلتخشَ دارَ الخُلْدِ والقرارِ
ولتخشَ من حَرِّ اللَّظَى والنَّارِ

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

يَهمُّون بإلقائه، فيضربونه ضربًا موجعًا!

يوسف: رُحْمَاكُمُو رُحْمَاكُمُو يا إخوتي ... إنِّي صغيرٌ فارْفُقوا بطفولتي

إنَّا ســـهامٌ من كِنانـــةِ واحدٍ ... وتفرَّعت أغصانُنا من دَوْحَةِ

هلَّا ترقُّ قلوبُكم لتضرُّعي! ... هلَّا تلينُ قناتُكـــم لمَذَلَّتي!

إن كنتُ قد أذنبتُ يومًا فاغفروا ... ذَنْبِي إليكُـــم وادفعُوه بالَّتي

أو لم أكُنْ فترفعوا عن مَظْلِمي ... خوفَ الجحيمِ ورغبةً في الجنَّةِ

واللهِ إنْ نِلْتُـــم أخاكم بالأذى ... فســـتندمونَ عليـــه كلَّ ندامةِ

فبِحَقِّ باريكم وحـــقِّ خليلِه ... وبحقِّ إسحاقَ ارحموا لأُخُوَّتي

يجردونه من ثيابه ويلقونه في الجُبِّ.

يوسف حين أُلْقي: يا مَنْ برَحْمَـتِه أنجى الخلـيلَ وقدْ ... رمى به المعـتدي نمروذُ في النارِ

فأصبحت جَنَّةً خضراءَ زاهيةً ... بكِلْـمةٍ مـنه لا ماءٍ وأمـطارِ

ومن فدى بعدُ إسحاقًا[1] وقد وُضِعَتْ ... عليه حدُّ المُدَى من غيرِ إضرارِ

تمرُّ بالنحرِ منه غيـــرَ مُدْمِيةٍ ... كما يمرُّ نســـيمٌ فـــوقَ أزهارِ

فنجِّني يا إلَهَ العرشِ من كَرْبِي ... كما رحِمْتَ جدودي إنَّكَ الباري

(١) هذا على ما في بعض مواضع العهد القديم وما رآه جمع من العلماء والمفسرين أن الذبيح إسحاق، وما يراه المحققون أن الذبيح هو إسماعيل

QaradawiBooks.com

(حينما ألقي الخليل في النار كان عريانًا، فأتـــى جبريل بقميصٍ من الجنَّة، وألبسه إيَّاه وتوارثه بعده ابنه إســـحاق، ثم يعقوب، ثم جعله يعقوب تميمة ليوســـف، فحين أُلْقِيَ في الجبِّ نزل جبريل عليه، وحـــلَّ التميمة، وألبس يوسفَ القميص).

جبريل: لا تخشَ سوءًا فإنَّ الله وَاقِيكا ومن حمى قبلُ إسحاقًا سيَحميكا
هذا قميصٌ من الفردوس مُتَّخَذٌ ما دُمْتَ لابسَـــه فاللهُ يُنجِيكا
من شـــمَّ ريحَهُ لم يأتِه ضررٌ ولم يَخَفْ سيِّدًا أو يخشَ مملوكَا
بلُبسِه قد نجا جدَّاكَ وانتصرا فكِلْ أمورَكَ للرحمنِ يكفيكا

يوسف: يا قلبُ لا تجزعْ ولا تفزعْ وكنْ قلبًا على سهم البلاء صَبُورَا
فاللهُ لي هـــادٍ وربُّكَ ناصري (وكَفَى بربِّكَ هاديًا ونصيرَا)

الإخوة: هـاتوا لنا سَخْـلَةً[1] لنذبحَها حتى نُـــرَوِّي قميصَـــه دَمَها
نقولُ هذي دماءُ يوســـفَ قد ســـالت فما أنقاها وأكرمها!
أتـاه ذئـبٌ في حيـــنِ غَفْلَتِنا خاويـــةٌ بطنـــه فأَطْعَمَـهـــا

(١) السخلة: الصغير من الغنم والمعز.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بعد أن رجعوا ليعقوب.

الإخوة: أأبي إنَّا إلـــى السَّـــبْقِ ذَهَبْنَا وتركنا يُوسُـــفَ عندَ المَتَاعْ
فإذا مـــا كنتَ تخشـــاهُ دَهَانا فأتى ذئبٌ خؤونٌ في السِّبَاعْ
غالَ منَّا يوسفَ الحُسْنِ ولو غالنا طُـــرًّا لمـــا كُنَّا نُـــرَاعْ
إنْ تُكَذِّبْنَـــا فهـــذا دَمُـــهُ في قميصِ الأَخِ قَدْ عَمَّ وشَاعْ
والمقاديـــرُ إذا شـــاءتْ فلا ينفعُ التدبيرُ أو تُنْجِي القِلَاعْ
حُكمُها يَنْفُذُ فينَـــا من رَدًى ونجـــاةٍ وانخفـــاضٍ وارتفاعْ

يتأمَّل يعقوب في القميص.

يعقوب: يـــا لهـــذا الذئبِ مـــا أحلمَهْ أكلَ المرءَ وما مـــزَّق ثوبَهْ!
ها قميصُ ابني أتاني كي أرى وجهَه فيه، فمـــا أحلم ذئبَهْ!
يأكل الذئبُ الفتى عظمًا ولحمًا أفلا غادر هذا الذِّئْبُ صُلْبَهْ؟
أصحيحٌ أَكَلَ الحُسْـــنَ الذي لو رآه الوحشُ لانتابتْهُ هَيْبَةْ؟!
وســـباه مـــن محيَّـــاه سَـــنًا مثلما يَسْبِي من العاشقِ قَلْبَهْ
ضربتني كفُّ دهـــري ضَرْبَةً آهِ من ذا الدَّهْرِ ما أغلظَ ضَرْبَهْ!
ورمانـــي حَرْبَـــةً مسـمومةً ويلَ من يُرمى من الدَّهْرِ بحَرْبَةْ
وســـقاني شـــربةً من حنظلٍ كانت الأمسِ من السَّلْسَلِ عَذْبَةْ
فاصـبري يا نفسُ صبرًا طيِّبًا من يَلُـذْ بالصبرِ يمـحُ اللهُ كَرْبَهْ
إنَّما ذو الصَّبْرِ من حِزْبِ الْإِلَـ ـه، معاذَ اللهِ أن يخذُل حِزبَهْ

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهْــوَ مُرْتَــاحٌ بدُنيــاه وفي يــومِ يلقى ربَّــه يَغْفِــرُ ذَنْبَهْ
وإذا لَــمْ يَصْطَبِــرْ لَــمْ يُغْنِه صرخةٌ أو نَوْحُه يندبُ خَطْبَهْ
ما قضى اللهُ ســيَمْضِي رُغْمَهُ لم ينلْ إلا الــذي أتعبَ قَلْبَهُ
صَحِبَ الشيطانَ مَفْتُونًا وما أَبْعَدَ الشيطانَ أن يَنصُرَ حِزْبَهْ!
وَيْحَهُ أتعبَ فــي أولاه قَلْبَه ويْلَهُ أغضبَ في أُخْرَاهُ ربَّهْ!

إخوة يوسف يذهبون إلى الحقل فيجدون ذئبًا، فيُقيدونه ويجيئون به إلى يعقوب.

الإخوة: هــذا هــو الذئــبُ الذي فتكــت بيُوســفَ نابُــهُ
وأذاقــــنــا مــن بَــــعْـدِه كأسًــا يُمِــرُّ شــرابُهُ

يعقوب يخاطب الذئب باكيًا:

يا ذئبُ هلَّا انثنى ناباكَ عن ولدي! وكيف تَخْطِفُ مِنِّي فِلْذةَ الكَبِدِ؟
وكيف تَفْجعُني فيه وتتركُني على بِساطٍ من الأحزانِ مُتَّقِدِ؟
هلَّا رحِمتَ أباه وهْو مكتئبٌ مُعَذَّبٌ في وَطِيس الحُزْنِ والكَمَدِ!
قد حرَّم النومَ جَفْني بعده أسفًا لا كُحْلَ لِلْعَيْنِ إلَّا إثْمِدُ السَّهَدِ
لَهْفِي على ثَغْره الباهي ومَبْسَمِه أَجْمِلْ بلؤلئه الزاهــي وبالبَرَدِ!
يا حرَّ قلبي من نارِ نوًى وجوًى ما فُرْقةُ الوُلْــدِ إلا حُرْقَة الكَبِدِ
مَن ذاق مثلي عذابًا في ابنِه حَزِنًا سبحان ربيَ، لم يولدْ ولم يلدِ

QaradawiBooks.com

مصائبُ الناسِ لا تُحصى عدائدُها ... لكنَّ شـرَّ مُصابٍ فُرقـةُ الوَلَدِ

يا ذئبُ خلَّيْتني في لوعةٍ وأسًى ... فصِرْتُ مُفْتَأَدًا، والشوقُ مُفْتَئِدِي

إنِّي أراني في يأسٍ وفي أملٍ ... أأنت مزَّقته أم لم يَزَلْ عَضُدِي؟

يا هل تُرى أين أنتَ اليومَ يا ولدي؟ ... ويا تُرى أنت تحذو أيَّ مُعْتَقدِ؟

أأنت في مِلَّة الشيطانِ مُطَّرِحٌ ... أم لا تزالُ بدِينِ الواحدِ الصَّمَدِ؟

إن كنتَ هذا فها دمعي أُطَلِّقه ... أو كنتَ ذاكَ سأبكي آخِرَ الأبَدِ

لا غروَ إن كان عندي بعدَه عَدَدٌ ... فليس ينفعُ عنـه كثـرةُ العَدَدِ

إنَّ النجومَ كثيرٌ في السماءِ ولا ... تُغْنِي عن البَدْرِ للدَّانِي ولا البَعِدِ

الأمرُ لله، والأكـوانُ في يَدِه ... وليس إلا على الرَّحمن مُعْتَمَدِي

يُنطق اللهُ الذئبَ: أَلَا يا نبيَّ الله أُقسـمُ بالذي ... حَبَاكَ الهُدَى فالرُّشْدُ منك يُرَامُ

لقد كذبوا ظُلمًـا عليَّ وإنَّما ... علينا لحـومُ الأنبيـاءِ حرامُ

ولو أنَّنا كِدْنا نموتُ من الطَّوَى ... فدونَ لحومِ الأنبيـاءِ حِمَامُ

عجيبٌ عجيبٌ كيف نأكلُ لحمَ من ... بدُونهمُ الدُّنيـا دُجًى وظلامُ

وهم زينةُ الدنيا وطِبُّ قلوبِها ... إذا مـا اعترتها عِلَّة وسَـقَامُ

أنرْوي الثرى بغيًا بطُهْر دمائهم؟! ... إذن فعلى هذا الوجودِ سلامُ

فلا وإلهي ما أكلـتُ لِلَحْمِه ... ولا ذُقَّ منه فـي يديَّ عظامُ

وإنِّي غريبٌ ليس لي موطنٌ هنا ... وما لي في تلك البلادِ مُقامُ

غير مرخصة للطباعة

وإنِّيَ من مصر وفارقني أخي ... وما عاد حتَّى اليومِ، وهْو غُلَامُ
أخي عضُدِي كفِّي ذراعي مَنْكِبي ... ألا يَعْتَريني من نَوَاه سِــقَامُ
جَنَاحي وظَهْري والفؤادُ ومُهْجَتِي ... ولولاه ما هابــت قواي نعامُ
إذا ضامني دهري أراه مَعُونَتي ... ومن ذا الذي في الدَّهْر ليس يُضَامُ؟
وإن رامت الأيامُ حربي بجَيْشِها ... فلي منه رمحٌ طاعنٌ وحسامُ
ومن ذا رأى كفًّا يُصفِّق وحدَه ... وهل حائطٌ في الانفرادِ يُقامُ؟
فأمسيتُ في نارٍ من الوَجْدِ بَعْدَهُ ... وقلبــي فيــه لَوْعَــةٌ وضِرامُ
وأقبلتُ في تلك البلاد مُفَتِّشًا ... وبينَ ضلوعي للحبيبِ هُيَامُ
فصفَّدَني ظلمًا بنوكَ وقيَّدوا ... وما لي ذنــبٌ أو عليَّ مَلامُ
فكم مِن بريءٍ في يَدَيْه سلاسلٌ ... وكم من مسيءٍ في يديه وِسَامُ

يعقوب: ألا عَجَبًــا للآدمــيِّ وحِقْدِه ... وكيف يُعادي أهلَــه وأخاهُ!
وحوشُ الفَلَا يحنو على البعضِ بعضُها ... فهل من حُنُوٍّ في القلوبِ نراهُ؟
ألا يا بَنِي يعقوبَ قُوموا تأمَّلوا ... إلى الذئبِ واستهدُوا بنورِ سَنَاهُ
أتى من أراضي مصرَ حيرانَ والِهًا ... لبُعــد أخيه حينَ طــال نَوَاهُ
أتى باكيًا يشكو فراقَ حبيبِه ... ويرغب لــو أنَّ الحِمامَ رماهُ
أتى باحثًا في كلِّ شرقٍ ومَغْرِبٍ ... ليُطفئَ وَجْدًا كامنًا بحَشَــاهُ
فما بالُكم ضيعتمو لأخيكمو ... ولم ترحموا ما قد ينالُ أباهُ؟

QaradawiBooks.com

تهُبُّ ريحٌ على يعقوب فيُخاطبها:

يا ريحُ بلِّغْ سلامي إن مررتَ به ... وصِفْ له بعضَ ما بالقَلْبِ من أَلَمِ

وقل له: إنَّ يعقوبَ به ظَفَرَتْ ... يدُ الخطوبِ يدُ الآلامِ والسَّقَمِ

وأنَّه قد أسال الدمعَ مُنهَمِلًا ... وصار يَمْزُجُه مـــن عَيْنِه بدَمِ

أَخبِـــرْه أنَّ يدَ الأيامِ قاســـيةٌ ... كادت تُقَطِّعني لحمًا على وَضَمِ

وأنَّ دائيَ داءٌ غيرُ مُنْحَسِـــمٍ ... وأنَّ جُرْحِيَ جرحٌ غيرُ مَلْتَئِمِ

وأنَّ حبلَ همومي غيرُ مُنْصَرِمٍ ... وأنَّ جيشَ زماني غيرُ مُنْهَزِمِ

يا ريحُ إنْ جُزْتَهُ فالثُمْهُ في كَلَفٍ ... أَطْيِبْ بمُبْتَسِـــمٍ منه ومُلْتَثَمِ!

يا ريحُ عانقْه في شوقٍ وفي ظمأٍ ... عِناقَ صَبٍّ بنارِ البُعْدِ مُضْطَرِمِ

فالدَّمْعُ أغرقني والبُعْدُ أحرقني ... والوَجْدُ أرَّقني والقلبُ في ضَرَمِ

* * *

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة

غير مرخصة للطباعة

الفصل الثاني

بقي يوسفُ في الجُبِّ ثلاثة أيام يتردَّد عليه يهوذا بالطعام، حتى أقبلت سيَّارة يريدون الشُّرب، وكان ماء الجُبِّ مِلْحًا فعذُب:

يـا صـاحِ هـذا غُـلامٌ ذو غُـرَّة كـالـصـبـاحِ
ومَـبْـسَـمٌ جـلَّ حُـسْـنًـا عـن أن يُضاهـي الأقَاحِي
فـلْـنـذهـبَـنَّ سـريـعًـا بـه كـذاتِ الـجَـنَـاحِ
فـإنَّ فـيـه غِـنَـانـا وفـيـه خـيـرُ رَبـاحِ

إخوة يوسف يُقبلون:

يـا قـومُ رُوَيْدَكـم انتظروا هـذا عبـدٌ منَّـا هَرَبَـا
فـإذا شـئتم فاشـروهُ ولَا تَغْفُـوا عنـه أنَّـى ذهبـا
فـإذا نِمتُـم عنه سـيـفـ ـرٌ ولا تجدون لـه طلبَا

السيارة: سنأخذه منكم بعشرين درهمَا

الإخوة: رضينا وإن كنَّا نرى العبد أعْظمَا

يُحذِّرونهم من فرار يوسف:

ذاك عـبـدٌ آبِقٌ فاسـتوثقوهْ واحذروا إن تَغْفُلوا أن تَفْقِدُوهْ
فلَكَـمْ فـرَّ مـرارًا هـاربًا فاحذروهُ واحذروهُ واحْذَرُوهْ

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

باع السيَّارةُ يوسفَ لقطفيرَ عزيزِ مصر ولم يكن له ولدٌ، فتبنَّاه، وذهب به إلى امرأته زُليخا يُبشِّرها.

قطفير: بُشْرَى زليخا فإنَّ الله ظفَّرنا هذا غلامٌ كقرصِ الشمسِ وهَّاجُ
كأنَّما هو في أنواره مَلَكٌ كأنَّ راحته في حُسْنِها عاجُ
فأكرمِيه وكوني مثلَ والدةٍ إنِّي لمثلِ مُحَيَّاهُ لمُحْتَاجُ

ثمَّ يلتفت ليوسف:

وأنت يوسفُ كنْ بالجِدِّ مُؤْتَزِرًا فالجِدُّ للمَكْرُماتِ الغُرِّ مِنْهَاجُ
وكنْ أمينًا على ما تَقْتَنِيه يَدِي إنَّ الأمانةَ للعلياءِ مِعْرَاجُ

زليخا تنظر ليوسف فيُسكرها حسنُه.

زليخا: يا حُسْنَهُ من غلامٍ زاهرٍ زاهِ ويا جمالَ مُحَيًّا باهرٍ باهِ
هذا هو الحُسنُ مجموعًا بوجهِ فتًى هذا هو السِّحر، هذا فتنةُ اللهِ
اللَّيثُ في غابه في أَوْجِ قُوَّتِه لو شامه لعَنَا كالواهنِ الوَاهِي
لكلِّ شيءٍ شبيهٌ في خَلِيقَتِه وذاك أُبْصِرُه معدومَ أشباهِ
آهٍ لقد هام قلبي عند رؤيتِه وها هو الحبُّ يَسري بينَه آهِ
إنِّي أُحِسُّ بقلبي راحَ في يَدِه فصار يحكمُ فيه آمِرًا ناهِ

ضرب الحبُّ أطنابَه بقلب زليخا، فلم تملك إلا أن تبوح به.

زليخا رِفْقًا بصَبٍّ دمعُه يترقرقُ وارحمْ لقلبٍ في هواكَ يُحَرَّقُ
ليوسف: وارِ الأُوامَ بقُبْلةٍ خمريَّةٍ تَشفي عَلِيلًا، نارُه تتألَّقُ

QaradawiBooks.com

يوسف: يا للعجائبِ كيف أقطُفُ وردةً ... ليست بغُصْنِ شُجَيْرتي تتعلَّقُ؟!
مــولاي آمَنَنِي على بُســتانِهِ ... أأعيثُ فيه كالذئابِ وأسرِقُ؟!
وأنا الحفيظُ على خزائنِ مالِه ... أأخونُ فيما لا يحلُّ وأُنفِقُ؟!

تترك زليخا يوسف يائسةً باكية:

قد رماني الدَّهرُ سهمًا فأصابا ... ما لسهمِ الدهرِ لم يُخْطِئْ طِلَابَا؟!
كنتُ من قـبلِ الهوى ســيدةً ... حكمت كفِّي رؤوسًا ورقابَا
إنْ أقُلْ لي تُصْــغِ ألفَا أُذُنٍ ... كلُّها ترشُفُ من قـولي شرابَا
وإذا رامت ســؤالًا شَــفَتِي ... كانت الدُّنيا ومـا فيها الجَوَابا
فإذا بي حينَ وافـاني الهَوَى ... أَمَـةٌ فانقلـبتْ حالي انقـلابَا
لســتُ غَضْـبَى إنَّني راضيةٌ ... غير أنَّ الحُـبَّ يَسْقِـينيَ صَابَا

تسمع زليخا وصيفتُها مارية فتدخل عليها متكتمة.

مارية: مَوْلَاتِ، قلـبي والعُيونُ فداكِ ... ماذا اعتراكِ؟ وما الذي أضناكِ؟
أين الشبابُ؟ وأين جدولُ مائه ... مُـتَدَفِّقًا يزهــو بـه خـدَّاكِ؟
أين القُدودُ السَّمْهَرِيَّةُ؟ أين ما ... حملتـه من ثُقْلِ الصِّبا رِدْفَاكِ؟
أين النُّهـودُ؟ وأين رُمَّاناتُها؟ ... أين المَضـاء بجَفْنِـكِ الفتَّاكِ؟
لو أنَّ ســيدتي تُنَبِّئـني بما ... تبغي لـطِرْتُ إليه شِبْهَ كَراكِي
أو كان في غَوْرِ البحارِ نزلتُها ... وسألتُ عنه جـماعةَ الأسماكِ
إنِّي لتَدْمـى مُقْلَتَاي لحـالِها ... يا ليتَ فيَّ جميـعَ ما أضنـاكِ

نسخة مجانية

زليخا: ماذا سيُضْنِيني وعندي بُغْيَتي من لذَّة تسمو عن الإدراكِ؟
لكنَّه داءٌ دفينٌ هدَّني والداءُ حاملُ صارمٍ سفَّاكِ

مارية في خُبْث: داءٌ بجسمِكِ أم بقلْبِكِ يا تُرى؟

زليخا في تجاهل: داءٌ بجِسْمي زائدُ الإنهاكِ!

مارية: يُدْرى الجوابُ إذا تُلِي عُنْوَانُه إن كان ذا فلِمَ العيونُ بواكي؟

زليخا: وهَبِي زُلَيْخا قد شكت لكِ ما بها ألديكِ طبٌّ للعليلِ الشاكي؟

مارية: إنَّ الطبيبَ مُخَفِّفٌ بكلامِه لهبَ الضَّنَى إنْ غاب عنه دَوَاكِ

زليخا: نصبَ الهوى لي في الجَمَالِ شِبَاكَهُ حتَّى وقعتُ بهذه الأَشْراكِ
أحببتُ يوسفَ ظاهرًا معَ باطنٍ لمَّا رأيتُ به سَنَا الأَمْلاكِ
يُبْدي الدَّلالَ إذا طلبتُ وِصَالَه ويَرُدُّني حَسْرى وطَرْفِيَ بِاكِي

مارية: مهلًا فإنَّ الحبَّ وردٌ ناضرٌ والوردُ لا يخلو عن الأشواكِ
فلأنصِبَنَّ له شِباكَ مكايدي حتَّى تنالي منه كلَّ مُنَاكِ

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

زليخا: بعد أن ظهر سرُّها:

أُخْفِي الهَوَى ونُحُولي غيرُ ستَّارِ والدمعُ يهتكُ أستاري وأسراري
فمَدْمَعِي وزفيري للهوى فضحا إنَّ الدُّخَانَ لَعُنوانٌ على النَّارِ

تذهب مارية ليوسف تستعطفه على سيدتها:

مارية ليوسف: يا مَن سمت بَهْجَةَ الأقمارِ بهجتُه ارحمْ فؤادًا كَلِيمًا أنت مُهْجَتُهُ
ارحمْ زُلَيْخَا فإنَّ الوَجْدَ أحرقَها وكاد يسلُبُ منها الرُّوحَ لَوْعَتُهُ

يوسف: لا فارقٌ بين ذي عقلٍ وذي وتَدٍ ما دام ذو العقلِ تَستهويهِ شهوتُهُ
لا تشربي الخَمْرَ ما دامتْ مُحَرَّمَةً عُذُوبةُ الشيءِ لا تُبقيه حُرْمَتُهُ
والمِلْحُ عَذْبٌ إذا ما المَرْءُ يَمْلِكُهُ وما أُحِلَّ لنا تحلو مَرَارَتُهُ

تيئس مارية من يوسف، وتعود إلى زليخا فيَسري الأمل في زُليخا حين تراها.

زليخا: أَلانَهُ اللهُ قلبًا للصَّبِّ يحنو عَلَيْهِ
فالجسمُ مِنِّي سقيمٌ وذاك من مُقلَتَيْهِ
وبينَ جَنْبِي نَارٌ حمراءُ من وَجْنَتَيْهِ
والدمعُ مِنِّيَ قانٍ أُعِيرَ من شَفَتَيْهِ
والكونُ أسودُ داجٍ واللونُ من حاجِبَيْهِ
والأرضُ ضاقت أمامي كمَنْفَذَيْ أُذُنَيْهِ

QaradawiBooks.com

وذا فـــــؤادي لَـدِيـــغٌ مـــن عَـقْرَبَـيْ صُدْغَيْـــهِ
ألانـــــــــه اللهُ قـلبًـــا للصَّـــبِّ يحنـــو عليـــهِ

تقبل ماريةُ فتسألها زليخا: ماذا وجدتِ؟

ماريـة: وجـــدتُ طَـــوْدًا راســـيًا ما إنْ يَرِقُّ لمَـدْمَعِي وكَلَامِـيَا
ليثٌ ولم تَفْتِنْهُ خَـدعةُ صائدٍ فيُزَجَّ في قاع الحـفائر هَاوِيـَا
فمَكايدي ومَصَايدي وزَخارفي ضاعت هَـبَاءً عنده وخِدَاعِيَا

زليخا في ألم: رمَتْنـــي دَعْجَاوَان ناعِسَـــتَانِ فأيقظتا عيـــنَ الهوى بجَنَاني
عيونٌ مِرَاضٌ وهْي بعدُ صحيحةٌ ومن ذا رأى الضِّدَّيْن يَجتمعانِ؟
مِرَاضٌ، فَوَاهًا كيف يَغْلِبْنَ قُوَّتي وأرجعُ في ذلٍّ بغير توانِ؟!
فَيَا لَك من رامٍ حِدادٌ سهامُه حرامٌ عليها الطَّيْشُ كالحَدَثَانِ!
فأَظْلِمْ به من سافكِ الدَّمِ مُعْتَدٍ رماني رَمْيَ المَـــرْءِ للكَرَوَانِ
رماني فأَصْمَى القلبَ وانحلَّ عِقْدُهُ وخرَّ صريعًا زائـــدَ الخَفَقَانِ
ولم يَعْبَأَنْ أَوْ يَحْتَفِلْ بالَّذِي رَمَى فيا ويلَ عينَيْه فكـــم تَئِدَانِ!
وكم تقتُـــلانِ الآدميِّين جَهرةً ولا قَوَدٌ يجري، ولا تَدِيانِ!
ومَرْهَمُ جُرْحي عنده ودواؤهُ فلِم لَيْسَ يُعْطِينِيهِما بأمانِ؟!
ألا إنَّ هذا الحكم يا قوم جائرٌ وإلَّا دعُوا الخَصْمَيْنِ يقتتلانِ
دعُوا ذا القُوى يغتالُ ذا الضّعْفِ باغيًا وإلَّا املؤوا بالعدلِ كلَّ مكانِ

QaradawiBooks.com

مارية في نَفْسِها: ويلُ المحبِّ من المحبوبِ يَرْمِيهِ بسَـــهْمِه ثمَّ يجفو ليس يَرْثِيهِ

يبكي المُحِبُّ بدمعٍ هاطلٍ هَتِنٍ والحُبُّ يضحكُ من دامي مَآقِيهِ

مِثْلُ السَّماءِ تَسِيلُ الدمعَ مُنْسَجِمًا والأرضُ تضحك من تَهْطالِ جَارِيهِ

أرخى الليلُ ســـدولَه، وأوى الناسُ إلى مضاجعهم، وبقيت زليخا مُسَهَّدةَ الطَّرْف، سائلةَ الدمع، تناجي نفْسَها بوَجْدها وحُرقتها:

نامت الشُّهْبُ شِـهابًا فشهابَا وغرابُ الليلِ قد شـاخَ وشابَا

ومنامُ العاشق الصَّبِّ جفاهُ

ما الَّذي أقلق في اللَّيْلِ زُلَيْخَا فغدت تصرخُ كالملدوغِ صَرْخَا؟

تُشـــبهُ الوَرْقاءَ إذ تفـقِد فَرْخَا وعَلَيْهَا الليلُ سِتْرَ الحزنِ أرخى

دَمْعُها الغيثُ انْهِمَارًا وانْسِكابَا وجهُـها القارُ سوادًا واكتئابَا

لونُها كالوَرْسِ مُصْفَرًّا تراه

هو ذاك الحبُّ خلَّى القلبَ سَلْخَا ورماه في إنـاءِ الوَجْـدِ طَبْخَا

وانثنى ينفخُ كِيرَ الشَّوقِ نَفْخَا لا يبـالي أنَّـــه قلـبُ زُليـخَا

فمضتْ تلتـهبُ النارُ التهـابَا فاستحال القلبُ لحمًا مستطابَا

كلُّ يوم فـيه للسُّقْمِ عَشَاه

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

أيُّ طيرٍ لم يَنَـمْ في وَكْـرِهِ؟ أيُّ وحشٍ لمن ينمْ في قَفْرِهِ؟
أيُّ ضبٍّ لم يَنَـم في جُحْرِهِ؟ نِمْـنَ طُرًّا، والَّذي في قَصْـرِهِ
تـَخِذَ الحُبُّ على عَيْنَيْهِ بَابَا ليس يخطوه الكَرَى إلَّا انتهابَا
مِنْ هوَى بدرٍ سَبَاهِ بحِلَاهُ
ليتَ عَيْنَـــيَّ تذوقانِ الكَرَى فأراني قد حضنـــتُ القَمَرَا
ورَشَـــفْتُ الرِّيـقَ منه سُكَّرَا ولَثَمْـــتُ الفـمَ منه مُسْـــكِرَا
لثمـةً تَرجعُ للشـــيخِ الشَّبابَا فتَرَاهُ قد صَبَـــا لا قد تَصَابَى
فمتى تَظْفَرُ عَيْنِي فَتَرَاهُ
قـــد زهـــا مَبْسَـــمُه بالفَلَجِ وتعالـــى طرْفُـــه بالدَّعَـــجِ
وتباهـــى خـــدُّه بالضَّـــرَجِ وتســـامت غـــرةٌ بالبَلَـــجِ
وزَهَا العُنْقُ بطُـــولٍ لَنْ يُعَابَا جلَّ من صوَّره حُسْـــنًا مُذَابَا
ذلك الحُسْنُ له تَعْنُو الجباهُ
فَبَـــدَا منـــه لِسَـــانٌ ذَلِـــقُ لَسْـــتُ أَدْرِي حِينَمَـــا يَنْطَلِقُ
أَبِخَمْـــرٍ أَمْ بِسِـــحْرٍ يَنْطِـــقُ قَـــالَ: أَقْصِـــرْنَ فَكُلٌّ أَسْـــبَقُ
فَلْيُرَاعَ الرَّبُّ فِيمَنْ قَدْ أَصَابَا صَدَقَ الحَاكِمُ مَا خَطِئَ الصَّوَابَا
هُنَّ فِي الْحُسْنِ بِأَقْصَى مُنْتَهَاهُ

QaradawiBooks.com

حَسَدَتْ عَيْنَيْهِ فِي الْبِيدِ الظِّبَا وتَمَنَّتْ لَوْ تُدَانِيهَا الظُّبَا

وانْثَنَى النَّرْجِسُ مِنْهَا مُعْجَبَا قَالَ كَمْ فِي الْخَلْقِ نَلْقَى عَجَبَا

أَيُّ قَلْبٍ مَا رَأَى تَيْنِ وَذَابَا إِي وَحَقِّ الْحُبِّ مَا قُلْتُ كِذَابَا

فَهُمَا فِي الْحُسْنِ فِي أَعْلَى ذُرَاهُ

شَفَةٌ يَحْسِبُهَا الرَّائِي عَقِيقَا تَحْتَهَا مَا يُخْجِلُ الدُّرَّ بَرِيقَا

وَفَمٌ أَعْظَمُ مِنْ صَدْرِيَ ضِيقَا بَيْنَهُ الْخَمْرُ وَلَا أُسْمِيهِ رِيقَا

لَيْتَ فِي مِلْكِ يَدِي هَذَا الرُّضَابَا كُنْتُ لَا أَشْكُو مِنَ الدَّهْرِ عَذَابَا

شَطَّ مَنْ شَبَّهَ بِالْخَاتَمِ فَاهُ

قَالَتْ الْأَعْيُنُ ذَاتُ الدَّعَجِ وَوُرُودُ الْخَدِّ ذَاتُ الضَّرَجِ

وَالْجُفُونُ الْآسِرَاتُ الْمُهَجِ مَا عَلَى عَاشِقِينَا مِنْ حَرَجِ

هَلْ أَخَذْنَا قَلْبَهُ إِلَا اغْتِصَابَا فَاسْتَلَبْنَا نَوْمَهُ مِنْهُ اسْتِلَابَا

هَكَذَا يَلْجَأُ مَنْ خَارَتْ قُوَاهُ

يَا هَنَا الثَّوْبِ الَّذِي يُنْمَى إِلَيْهِ يَا هَنَا نَوْمٍ يَغْشَى مُقْلَتَيْهِ

يَا هَنَا كَأْسٍ يُدَانِي شَفَتَيْهِ يَا هَنَا التُّرْبِ الَّذِي يَمْشِي عَلَيْهِ

لَيْتَنِي كُنْتُ لِرِجْلَيْهِ تُرَابَا لَيْتَنِي كُنْتُ بِكَفَّيْهِ شَرَابَا

أَحْظَ إِذْ تَرْشُفُ مِنِّي شَفَتَاهُ

يَا حَبِيبًا كَعَمُودِ الصُّبْحِ لَاحَا ذَا أَرِيجٍ كَأَرِيجِ الْمِسْكِ فَاحَا

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

عِدْنيَ الْوَصْلَ وَلَوْ كَانَ مِزَاحَا عَلَّهُ يُبْرِئُ هَاتِيــكَ الْجِرَاحَا
سَلْنِيَ الرُّوحَ تَكُنْ رُوحِي الْجَوَابَا فَتَــرَى قَلْبِي بِهَا سُــرَّ وَطَابَا
فَأَغِثْ قَلْبِي الَّذِي أَنْتَ مُنَاهُ

يُوسُفَ الْحُسْنِ أَلَا تَرْحَمُ صَبًّا كَادَ يَفْنَــى وَلَهًا فِيــكَ وَحُبًّا
كَادَ أَنْ يَقْضِيَ مِنْهُ الصَّدُّ نَحْبَا كَادَ أَنْ يَقْتُلَــهُ الْهُجْرَانُ صَلْبَا
دَمْعُهُ الْأَحْمَرُ يَنْصَبُّ انْصِبَابَا وَجْهُهُ فِي الْأَرْضِ يَنْكَبُّ انْكِبَابَا
صَدْرُه الوَقَّادُ لا يَخْبو لَظَاهُ

أفــلا تَرحــمُ وَلْهَــانَ مُعَنًّى لَو شَكَا لِلصَّخْرِ أَشْكَاهُ وحَنَّا
لَوْ رَأَى حَالَتَــهُ الوَحْشُ لَأَنَّا لَوْ رآه الجِنُّ فِــي اللَّيْلِ لَجُنَّا
حالة الملموسِ ذعْرًا واضطرابَا حالةٌ مِنْ دونِها النَّــارُ عَذَابَا
إنَّ مَنْ في النَّارِ قد يَطْفَا لَظَاهُ

أفلا ترحمُ من هِيضَ جَنَاحُهْ ورَمَاه الدَّهْرُ فَانثلَّ سِلَاحُهْ؟!
أفلا ترحمُ من هاجت رِياحُهْ واستوى الليلُ لديه وصَبَاحُهْ
رَفَعَ الحــزنُ بجَنْبَيْــه القِبَابَا وغَدَا كالسَّيفِ والقلبُ قِرَابَا
ومَضَت تقطعُ في القَلْبِ مُدَاهُ

هبْ غَرِيقًا بينَ مَوْجٍ كالجِبَالْ يلعــبُ المَوْجُ به غَيْــرَ مُبَالْ
ينثنــي بيــن يمينٍ وشِــمَالْ واهِنَ الكَفَّيْنِ مقطوعَ الحِبَالْ

نسخة مجانية للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يَبْسُطُ الأيدي فَلَا يلقى جَوَابَا يَستغيثُ الناسَ ذُعْرًا واضطرابَا
إن تَكُنْ ترحمُ هذا فأنا هُو

لاح الصباح، فقامت مارية إلى سيدتها، فوجدتها تنوح وتبكي، فظلَّت تُخفِّف عنها.

مارية: دُمْتِ مَوْلاتي، ويا سَيِّدَتي خَفِّفي عنكِ تباريحَ الأسى
فغَدًا تَجْنِينَ ما تَبْغِينَهُ إِنَّمَا يُحْرَمُهُ مَنْ يَئِسَا
وغدًا تَخْضَرُّ أغصانُ الرَّجَا ءِ وَيَزْهُو مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ يَبِسَا
وغدًا يُطْلَقُ قَلْبٌ مِنْ جَوًى بعدما كان به مُحْتَبَسَا
فعَسَى يَنْزِلُ من عَلْيَائِهِ قَمَرٌ يُعْطِيكِ مِنْهُ قَبَسَا
وَعَسَى أن يَنْثَنِي غُصْنٌ جَفَا وعسى يَرْحَمُ مَحْبُوبٌ قَسَا
وعسى يَقْرُبُ مَعْشوقٌ نَأى وعسى يَسْلُسُ مُهْرٌ شَمَسَا
وعسى يَنقادُ ظَبْيٌ نَافِرٌ وعسى يَبْسُمُ دَهْرٌ عَبَسَا
وعسى يُشْرِقُ صُبْحُ الْوَصْلِ مُزْ دَهِرًا يَقْطَعُ ذَاكَ الْغَلَسَا
وعسى أن تَخْلَعِي ثوبَ الصُدُو دِ فبئسَ الصَّدُّ ثَوْبًا لُبِسَا
وعسى أن تَكْتَسِي ثَوْبَ الوِصَا لِ فَمَا أَجْمَلَهُ مِنْ مُكْتَسَى!
وعسى أن تحتسي رِيقَ الطِّلَا إِيهِ مَا أَطْيَبَهُ مِنْ مُحْتَسَى!
فارْحَمِي عينَيْكِ من هذا البُكَا وارحمي قلْبَكِ من هذا الأسى
فالأسى وحشٌ فإِنْ خَلَّيْتِهِ رُحْتِ في أنيابِهِ مُفْتَرَسَا

QaradawiBooks.com

زليخا راجية: حُلْوَةٌ منك (عسى) يا لَيْتَني أجْتَنِي تَحْقِيقَ أَخْبَارِ عَسَـى

مارية: إنَّ بعدَ العُسْرِ يُسْرًا فاصبري يَتْرَعِ الوَصْلُ لَدَيْكِ الأَكْؤُسَا

خلا القصر إلا من يوسف وزليخا، فأقبلت عليه طالبةً الوصالَ.

زليخا: هيَّـا

يوسف: إلى أَيِّ شَيْءٍ؟

زليخا: لا تَكُنْ جَزِعَا

يوسف: ماذا ترومينَ؟

زليخا: قُـمْ لا تـدَّعِ الـوَرَعَـا

يوسف: قَتْلِي وصَلْبِي وإحْراقي وتَذْرِيَتِي في الجَوِّ دُونَ الذي تَبْغِينَ أن يَقَعَا

تتمكَّنُ زليخا من إغلاق النوافذ وتعود سيرتَها الأولى.

زليخا: ألَا أَقْـدِمْ وكنْ بَطَـلًا جَرِيئًا ولا تُحْجِـمْ فَمَا أحـدٌ يَرانَا

يوسف: أَأُوصَفُ بالجراءةِ في المعاصي إذنْ ذُقْتُ الخَسـارةَ والهَوانَا

معـاذَ اللهِ أَنْ أُمْسِـي خَؤُونًا فلا أرعـى لقِطْفِيـرٍ مَكَانَا!

أيُكْرِمُنـي العزيزُ ويَصْطَفِيني وبعدُ يَقُول فـيَّ: زَنَى وخَانَا

تتغافل زليخا وتعيدُ قولها:

ألا أَقْـدِمْ وكنْ بطـلًا جريئًا ولا تُحجـمْ فما أحـدٌ يرانا

QaradawiBooks.com

يوسف: رُوَيْـدَكِ إنَّ ثمَّـةَ مـن يَرَانا ويُبْصِرُ كُلَّ ما تَطوي حَشَـانَا
هَبِـي أنَّ النوافـذَ مُغْلَقَاتٌ أتَحْجُبُ عَيْنَ جَبَّـارٍ يَرَانَا؟!
هَبِينَا نَمْلَتَيْـنِ بجَوْفِ جُحْرٍ بِلَيْـلٍ مُظلِـمٍ أفـلا يَرَانَا؟!
تَعَالـى اللهُ أَنْ نَخْفَـى عَلَيْهِ ويَجْهَـلَ في خَلِيقَتِـه مَكَانَا

يفرُّ يوسفُ منها إلى الباب، فتُمسـكه من قميصه، فيَنقدُّ، فيدخل قطفير عليهما في هذه الحال.

زليخا لقطفير: ما جزاءُ الذي أراد بكَ السُّو ءَ سِوَى أن يذوقَ السُّجُونَا؟
قطفير ليوسف: كيف يا يوسفُ تخونُ بأهلي أوَهَـذا مَغَبَّـةُ المُكْرِمِينَـا؟
يوسف: حـاشَ للهِ أن أكـونَ خَؤُونًا كيف أبغي بمَنْ رآني أَمِينَا؟
حـاش لله أن أكـونَ كذِئبٍ يَعْشَقُ الجِسْمَ في الشِّيَاهِ السَّمِينَا
إنَّها زوجُكَ التـي رَاوَدَتْني حـاش لله أن أكـون خَؤُونا

يتكلم طفل في المهد، وهو ابن خال زليخا.

الطفل: إنْ كان قَدْ قُدَّ قميصُه من خَلْفِه فهِيَ الكَذُوبُ وما عليه عِقَابُ
أو كان قُـدَّ قميصُـه قُدَّامَهُ فهي الصَّدُوقُ ويوسفُ الكَذَّابُ

يتأمل قطفير في القميص فيجد القد من خلف فيعرف كذبها وبراءته.

قطفير: إنَّـه كَـيْـدُ زُلَـيْـخـا إنَّـه كَـيْـدٌ عَـظِـيـمْ

QaradawiBooks.com

ثمَّ يلتفت لها: فاستقبلي ما جَنَيْتِ إنَّه جُرْمٌ لَئِيمْ
ثم يلتفت ليوسف: فاكتُمِ السِّرَّ علينا قد عَهِدْنَاكَ الْكَرِيمْ

يذهب كلٌّ إلى متوجَّهِه، يوسف بريئًا، وقطفير حانقًا، وزليخا خائبة.

يوسف في نفسه: «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا» والنِّسَا كَيْدُهُنَّ كَيْدٌ عَظِيمُ
هُنَّ أَشْرَاكُ الفِسْقِ في كُلِّ عَصْرٍ كم بِهِنَّ اصْطِيدَ الوَلِيُّ الكَرِيمُ
مُذْنِبَاتٌ ويَتَّهِمْنَ بَرِيئًا «إِنَّ رَبِّي بكَيْدِهِنَّ عَلِيمُ»

يئست زليخا من يوسف وأغلقت بيتها عليها تندب عشقها.

زليخا: مَنْ ذَاقَ يَا قَوْم مِثْلِي العَلْقَمَ المُرَّا ومَنْ تَجَرَّع مِنْ مَحْبُوبِهِ الْهَجْرَا؟
أَحْبَبْتُ مَنْ لَا أَرَى شيئًا يُشابِهُهُ لو يَخْطُبُ الشمسَ لَمْ يَدْفَعْ لها مَهْرَا
مَدَدْتُ كَفِّي إليه كَيْ أُعَانِقَهُ وقلتُ يا بَدْرُ أطفئْ ناريَ الحَرَّى
فقالَ لِي قَوْلَةً لا كان مَوْقِعُها أَنَّى تَنَالُ اليدُ المَمْدُودةُ البَدْرَا
فقلتُ: يا غُصْنُ، إِنَّ النار ثَائِرَةٌ في القلْبِ مَا لَكَ لا تُخْبِي لَهَا جَمْرَا
فقال لي: نَارُكِ الحَرَّى إذا اقْتَرَبَتْ للغُصْنِ تُحْرِقُهُ لَا تُبْقِي له ذِكْرَا
فقُلْتُ: يا جَنَّةَ الحُسْنِ التي ازدهرت دَعْنِي ولو ساعةً كي أَقْطِفَ الزَّهْرَا
فقال لي: إِنَّما الجنَّاتُ مُغْلَقَةٌ فاصْبِرْ لتَدْخُلَها في دَارِكَ الْأُخْرَى
فسَدَّ بابَ رجائي يا له لَبِقًا زادت لَبَاقَتُه في قَلْبِيَ الحَرَّا

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

الفصل الثالث

نسخة مجانية

تســرَّب خبرُ زليخا من الجدران إلى الخارج، فجلس نسوةٌ يتحدَّثْن عن زليخا، ويلُمْنها على تركها العزيز وعشقها العبد.

إحداهن: امــرأةٌ تملــك دُرًّا ثَمِينًــا ... تَهْوَى وِعَاءً مِنْ مِيَاهٍ وطِينْ!

مَنْ عِنْدَه الأَثْوَابُ مِنْ سُنْدُسٍ ... مِنْ أَيْنَ يَهْوَى القُطْنَ وهْوَ مَهِينْ؟

تعشــقُ عبــدًا بعزيزٍ ســما ... إنَّا نَرَاهــا في ضــلالٍ مُبِينْ

زليخا حين سمعت بمكرهن:

من لم يذُقْ طعمَ الشُّهودِ يَظنُّها ... فــي طَعْمِها كبقيَّــةِ المأكولِ

من لم يَشَمَّ الوردَ ظنَّ أَريجَهُ ... مِن جَهْلِه كالقمحِ أو كالفولِ

من لم يرَ الدِّيباجَ في لَمَعانِه ... ظنَّ النَّفاســةَ كلُّها في التِّيلِ

يا وَيحَ قلبي من حبيبٍ فاتنٍ ... ما في الأنامِ لــه مَثِيلُ مَثِيلِ

فكأنَّ غُرَّتَه الجمــالُ جَمِيعُه ... وكأنَّه في الأرضِ كلُّ جميلِ

ذُقتُ الرَّدَى إن لم أعانِقْ بُغْيَتِي ... منــه فأبلــغَ غايــةَ المأمولِ

يَلومُني عُذَّلي في الحبِّ مِن سَفَهٍ ... كأنَّ قلبي في كَفِّــي أُصَرِّفُهُ

كأنَّما الحُبُّ هذا خاتمٌ بيدي ... أُبقيه إن شئتُ ملبوسًا وأَحْذِفُهُ

ما الحبُّ إلا سَقَامٌ لا اختيارَ لنا ... فيــه ولكنَّــه عِــبْءٌ نُكَلَّفُهُ

فيا عَذُولُ استرحْ فالعَذْلُ مَجْهَدَةٌ ... وانكفَّ عَنِّي ودعْ دمعي أُكَفْكِفُهُ

فما كلامُكَ إلا في الصدورِ شَجًا ... وليس إلا قَذًى في العَيْنِ تَقْذِفُهُ

العَذْلُ مَتْعَبَةٌ لا نفعَ يَصْحَبُهَا ... لا يتركُ الحُبَّ من غَالَتْهُ قَرْقَفُهُ

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أرسلت زليخا للنسوة وأعتدت لهنَّ متكأ، وأعطت كل واحدة منهن سكينًا، وزينت يوسف بكل أنواع الثياب والحلى، ﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ وقلن.

إحداهنَّ: يا وَيْحَ هذا من مَلَكْ يُخْزِي البُدُورَ في الفَلَكْ
يا مَلَكِي ما أَجْمَلَكْ! الحُسْنُ والجَمَالُ لَكْ
يا طِيبَ مَنْ لَكَ امْتَلَكْ

ثانية: الحُسْنُ في فُنُونِهِ يَنْبُعُ مِنْ مَعِينِهِ
والخَمْرُ مِنْ عُيُونِهِ والسِّحْرُ من جُفُونِهِ
والشَّمْسُ مِنْ جَبِينِهِ

ثالثة: يا حُسْنَهُ ما أَعْظَمَهْ! يا غُصْنَهُ ما أَقْوَمَهْ!
يا طَرْفَهُ ما أَسْقَمَه! أَهْنِئْ بمَنْ نَالَهُ فَمَهْ!
يَا لَيْتَنِي لَهُ أَمَةْ!

رابعة: بِخَدِّهِ المُضَرَّجِ وثَغْرِهِ الْمُفَلَّجِ
وبِالْجَبِينِ الْأَبْلَجِ والحَاجِبِ المُزَجَّجِ
لا يُعْذَلَنْ فيه الشَّجِي

زليخا: هَذَا الذي هَامَ قَلْبِي في مَعَانِيهِ «وَذَلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ»
هذا الذي رَاحَ قَلْبِي عَبْدَ غُرَّتِهِ ونال وجهًا صَبِيحًا جَلَّ بَارِيهِ
هذا الذي لو رنا للبَدْرِ خَرَّ لهُ ولم يَجُرَّ ذُيولَ الحُسْنِ والتِّيهِ
هذا الذي الحُسْنُ أَعْطَاهُ أَزِمَّتَهُ فجلَّ في الحُسْنِ عن وَصْفٍ بتَشْبِيهِ

QaradawiBooks.com

لو قال لي: ألِّهيني واعبُدِي قَدَمِي ... ما كنتُ أُبْعِدُه عَــنْ أيِّ تَأْلِيهِ
الوَجْدُ أَشْعَلَ في قَلْبِي وَطِيسَ لَظًى ... فلَيْسَ في الأَرْضِ من نارٍ تُضَاهِيهِ
مَنْ لي بِإِخْمَادِهَا مَنْ لي بِمُطْفِئِها ... وكيف يُطْفِئُها شيءٌ سوى فِيهِ

النسوة لزليخا: لِمَ لَا تَرْشُفِينَ من خَمْرِ رِيقِهْ؟ ... لِــمَ لَا تَرْتَوِينَ مِــنْ إِبْرِيقِهْ؟
لِمَ لَا تَقْطُفِينَ مِنْ وَرْدِ خَدِّهْ؟ ... لِمَ لَا تَلْثُمِيــنَ زَاهِي عَقِيقِهْ؟

زليخا: إِنَّــه كَــالــطَّــوْدِ رَاسِ ... لِــمْ يُــحَــرِّكْ قَــدَمَــا
«وَلَــقَــدْ رَاوَدْتُــهُ عَــنْ ... نَــفْــسِــهِ فَــاسْــتَــعْــصَــمَــا»
وَلِــئْــنَ لَــمْ يَــمْــتَــثِــلْ أَمْــ ... ــرِي أُذِقْــهُ الأَلَــمَــا
يُدْخَــلُ السِّــجْنَ فيُسْــقَى ... مِــنْ أَذَاهُ عَــلْــقَــمَــا

إحدى النسوة: إِنَّــه كَــالــطَّــوْدِ راسِ

زليخا: إِنَّــه كَــالــصَّــخْــرِ قَــاسِــي

إحداهن: مــن حَبَــاهُ اللهُ مِلْــكَ الْــ ... ــحُسْــنِ لــم يَعْبَــأْ بــآسِ

يقبل النسوة إلى يوسف وينصحنه بطاعة مولاته.

النسوة: لا تَعْصِ مولاتَكَ يا يُوسُفُ ... فاليومَ أمســى حالُها يُوسِفُ
قد خَيَّــمَ الحزنُ بأحشــائها ... لَمَّا رَمَاها جَفْنُــكَ المُرْهَفُ
كــأَنَّــهــا حــمــامــةٌ حَــيَّــةٌ ... تُقْلَى على النَّارِ ولا تُسْــعَفُ
كــأَنَّــهــا فَــرِيــسَــةٌ للجَوَى ... نُسُــورُهَا من لَحْمِها تَخْطِفُ
كــأَنَّــهــا بَــقَــرَةٌ حَــيَّــةٌ ... تُسْــلَخُ في بُطْءٍ ولا تُنْصَفُ
فجُدْ على جَرِيحِكَ المُرْتَمِي ... ودَعْه من خمرِ الطِّلَا يَرْشُفُ

QaradawiBooks.com

يوسف رادًّا عليهن:

أَأُطِيعُ سيَّدتي فأقضيَ شَهْوةً؟ مَا تِلْكَ إِلَّا طَاعَةُ الشَّيْطَانِ
أَشْرِي إِطَاعَتَهَا بطَاعَةِ سَيِّدي قِطْفِيرَ ثُمَّ السيِّدِ الدَّيَّانِ
هي إن تكُنْ مولاةَ كَفِّي سَاعِدِي والمَنْكِبَيْن وظاهِرِ الجُثْمَانِ
فزمامُ دِينِي مُطْلَقٌ مُتَصَرّفٌ لا شيءَ يَمْلِكُه سوى الرَّحْمَنِ
فلْتَنْهَ أو تأمرْ بما تبغي فما أنا غيرُ خاتِمِها بطرَفِ بَنَانِ
أنا رَهْنُ طَاعَتِها إذا أَمَرَتْ بما لا سُخْطَ فيه لمُبْدِعِ الْأَكْوَانِ
لَكِنْ إذا أَمَرَتْ بما أمَرَتْ به فأرى لَعَمْرِي طَاعَتِي عِصْيَانِي

ثم يقول في نفسه:

لَا خَيْرَ فيَّ إذا سَبَا نِي الخَدُّ والقَدُّ القَوِيمْ
عجبًا أتفتِنُني النِّسَا ءُ بدُرِّ مَبْسِمِها النَّظِيمْ
وأنا الكريمُ ابنُ الكري مِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمْ
حاشَايَ أَخرجُ حَنْظَلًا في ذلك الكَرَمِ العَظِيمْ
السَّجْنُ أَطْيَبُ لِي وَلَا أَزْنِي كما يَزْنِي اللِّئِيمْ

تذهب زليخا إلى الملك تلتمس منه الأمرَ بإدخاله السجن.

زليخا: يا مَلِيكَ الزمانِ دُمْ في أَمَانِ ذا غُلَامٌ إذا أمرتُ عَصَاني
وإذا قُلْتُ هاتِ الكَأْسَ وَلَّى وإذا رُمْتُ وَرْدَةً ما حَبَاني
فأُذَنَنْ، هَاتِ لِي بسَجْنِه علَّه يَنْـ ـقادُ إن ذاق فيه بَعْضَ الهَوَانِ

يوسف: أيَّ وردٍ طَلَبْتِ مِنِّي فلم أُحْـ ـضِرْهُ يَوْمًا ولم يكنْ الِامْتِثَالْ؟!
أيَّ كأسٍ طلبتِ مِنِّي فولَّيْـ ـتُ فرارًا كما يَفِرُّ الغَزَالْ؟!

QaradawiBooks.com

زليخا في همس: أَنَسِـيتَ وردَ الخَدِّ لمَّا رُمْتُهُ فأبيتَ واستَعْصَيْتَ كالرِّئْبَالْ؟!
أنسيتَ كأسَ الرِّيقِ حينَ أردتُه فعصيتَ مثلَ النَّسْرِ غيرَ مُبَالْ؟!

يأمر الملك بإدخاله السجن.

يوسف حين أُمِرَ بسَجْنه:

دُخولُ السِّجْنِ بل نارُ السَّعِيرِ أحبُّ إليَّ من فِعْـلِ الفُجُورِ
أأفعـلُ فِعْـلَ شـيطانٍ مَرِيدٍ وأخضعُ للمَلَذَّةِ كالحَمِيرِ؟!
أأطرقُ بـابَ غانيـةٍ كَعَابٍ وأهْتِكُ عِرْضَها هَتْكَ السُّتُورِ؟!
أتملكُ شَـهْوَتَاي زمامَ قَلْبِي فأَمْشِي في الحياةِ بغيرِ نُورِ؟!
إذنْ لا خيرَ في إشراقِ عَقْلٍ إذا لبَّى الدُّعـاءَ لغَيْرِ خِيرِ[1]
وليس العقـلُ إلا خيرَ صُبْحٍ أَراه وخَيـرَ مِصْبـاحٍ مُنْيـرِ
ليَحْيَـا الليثُ كلبًـا إن رَمَتْه غـزالٌ ذاتُ قـدٍّ مُسْـتَدِيرِ
وبئس البَازُ إنْ يخشعْ حِمَاه لِقُبَّـرةٍ ويخشـعْ كالصغيـرِ
على الدُّنْيا العَفَاءُ وسـاكِنِيها إذا عاش العفـافُ بلا نَصِيرِ
يقولون: القصورُ بيوتُ خَيْرٍ وكلُّ الشرِّ في جَوْفِ القُصورِ
فلا تُرِدِ القُصـورَ ولا تَرُمْها فكلُّ المَجْدِ في الكُوخِ الحَقِيرِ
فإن تَعْـدَمْ عَفَافَهمـا جميعًا فـرُمْ كُلَّ المُنَى بيـنَ القُبُورِ

(١) الخير بالكسر: الشرف. انظر تاج العروس مادة (خ. ي. ر).

QaradawiBooks.com

زليخا وهي مودعة ليوسف:

مـا جَـــزَاءُ الـغَـاصِـبِـيـنْ وجَـــــزَاءُ الـسَّـارِقِـيـنْ
وجـــــزاءُ الـمُـحْـرِقِـيـنْ وجـــــزاءُ الـسَّـافِـكِـيـنْ
غَيْرُ هَاتِيكَ السُّجُونْ

يوسف: فِيمَا أُجَازَى بالسُّجونِ ولم أكُنْ مِن زُمْرةِ السُّـفَّاكِ والسُّرَّاقِ
كلَّا ولا في السافِكِينَ دَمًا ولا في الغاصبينَ ولا ذوي الإحراقِ؟!

زليخا: عجبًا أَتُنْكِرُ ما فعلتَ ألستَ مَنْ غَصَبَ الفؤادَ بغيرِ ما إشْفَاقِ!
وسرقتَ قَلْبِي وهْوَ بَيْنَ ضُلُوعِهِ وسَرَقْتَ كُحْلَ النَّوْمِ مِن أحْدَاقي
وسفكتَ مُهْجَتِيَ الأسيرةَ للْهَوَى بالصَّـــدِّ لا بالصــارمِ البَرَّاقِ
وأثَرْتَ في قَلْبِي حريقًا هائجًا؟! ما بعد ذا الإحراقِ مِنْ إحراقِ

يوسف: ويْحَ الجَمَالِ فكم عُذِّبْتُ من يَدِه وكم ســقاني آلامًا وأشجانَا
رُمِيتُ في الجُبِّ مكتوفًا بلا سببٍ وذُقْتُ فيه مــن الآلامِ ألوانَا
وبِعْتُ بِيعَةَ بَخْسٍ لا أبوحُ بها فلَمْ أُساوِ بها الحِمْلَانَ أثمانَا
ثُمَّ اتُّهِمْتُ بفحشاءٍ ومعصيةٍ وما اقترفتُ وربِّ الخلقِ عِصيانَا
وبعدَ أن أُلْقِيتُ في سِجْنٍ كمَقْبُرَةٍ مع اللصوصِ ذوي الإجرامِ عُدْوَانَا
وما سرقتُ فتيلًا أو أرقتُ دمًا ولا اعتديتُ ولا آذيْتُ إنسانَا

يدخل مع يوسف السجن فتيان: أحدهما خبَّاز الملك، والثاني ساقيه.

يوسف: ماذا أتى بِكُما يا صاحبيَّ هنا؟ وما رمى بكما في ذلك الشَّرَكِ؟

QaradawiBooks.com

الفتيان: قد اتُّهِمْنا بدسِّ السمِّ للمَلِكِ ... ورُبَّ مُتَّهَمٍ أنقى من المَلَكِ

يوسف: حقًّا، فكم من فتًى بالسوءِ مُتَّهَمٌ ... وبينَ الاِثْنَيْنِ بُعْدَ الفُلْكِ والفَلَكِ

وكم ظَنِينٍ بفحشاءٍ وبينَهما ... بُعْدُ السِّمَاكِ عن الحِيتانِ والسَّمَكِ

يقصُّ كلٌّ منهما رؤيا رآها على يوسف.

الساقي: رأيتُ ذاتَ عناقيدٍ من العِنَبِ ... ثلاثةٍ دُلِّيتَ غرَّاءَ كالشُّهُبِ

قَطَفْتُها وأخذتُ الكأسَ أعْصِرُها ... وبَعْدُ عاطيْتُها للمَلْكِ في طَرَبِ

فهَلْ بِرُؤْيَايَ لَسْعٌ أَمْ بِهَا عَسَلٌ ... إِنِّي أراكَ مِثَالَ العِلْمِ والْأَدَبِ

الخبَّاز: رأيتُ برَأْسِي ثَلَاثَ سِلَالٍ ... وفيها من الخُبْزِ شَيْءٌ ثَمِينْ

تَحُومُ عَلَيْهَا سِبَاعُ الطُّيُورِ ... فتَأْكُلُ أكْلَ خِمَاصِ البُطُونْ

برَبِّكَ أوِّلْ لنا ما نرى ... فـ«إنَّا نراكَ من المُحْسِنِينْ»

يوسف: سَأُنْبِيكُما بكلِّ طَعَامٍ ... قبلَ إتيانِه فإنِّي عليمُ

ذاكَ من فضلِ بارئي وإلهي ... إنَّ فضلَ الباري علينا عظيمُ

إنَّه الواحدُ الذي لا يُجْزَى ... إنَّه الماجدُ العليمُ الحكيمُ

ظاهرٌ باطنٌ سميعٌ بصيرٌ ... أحدٌ باقٍ سَرْمَدِيٌّ قَدِيمُ

إنَّ ما تَعبدونَ ما هو إلَّا ... بعضُ مَخلوقِه الذي لا يَدُومُ

سوف يَفْنَى بَرٌّ وبَحْرٌ وأرضٌ ... وستخفى كواكبٌ ونُجُومُ

فإذا رُمْتُمُ الهدى اتَّبِعُوني ... واعبدوا اللهَ وحْدَه تَستقيموا

فبِهَذَا وصَّى أصُولِي يعقو ... بُ وإسحاقُ ثمَّ إبراهيمُ

بعد أن دعاهما يوسف إلى التوحيد ظلَّ يُعبِّر لهما رؤييهما.

QaradawiBooks.com

يوسف للساقي: أبشِرْ بنَصْرِكَ وافرحْ أيُّها الساقي ... واقْطُفْ ورودَ التَّهاني ذاتَ إشراقِ
تلــك العناقيدُ أيَّامٌ ســتَلْبَثُها ... في السِّجْنِ مَا بَيْنَ تَأميلٍ وإشفاقِ
وبعدُ ترجعُ مثلَ الأمْسِ مُبْتَهِجًا ... كالطَّيْرِ ما بين أزهارٍ وأوراقِ

يوسف للخبَّاز: وأنتَ يا أيُّها الخبَّــازُ مَعْذِرةً ... فما لما قدَّر الرحمنُ من وَاقِ
أمَّا السِّلالُ فأيَّامٌ ســتَمْكُثُها ... في السِّجْنِ ما بين تعذيبٍ وإرهاقِ
وبعدُ تُصْلَبُ في ذُلٍّ وفي فَرَقٍ ... والناسُ تشهدُ فاسمعْ قولَ مِصْدَاقِ
والخُبزُ رأسُكَ منه الطَّيْرُ آكِلَةٌ ... إذ لُطِّخَتْ بِدَمٍ في الأرضِ مُهْرَاقِ
وما عليَّ سِوَى تأويلِ حُلْمِكُمَا ... ولا أَزيــدُ بتقييــدٍ وإطلاقِ

بعد مضيِّ ثلاثة أيام تحقَّق تأويلُ يوسفَ، وصُلِبَ الخبَّاز، وبُرِّئ الساقي، وخرج من السجن يُوَدِّعه يوسفُ ويُذَكِّره بفعاله.

يوسف: أَلَا لا تَنْسَــنِي يا ساقِ واذْكُرْ ... خِصَالِي عندَ ربِّكَ يا حَبِيبُ
وقُصَّ عليه مــن أَمْرِي وإِنِّي ... بريءٌ ما علــى كَتِفِي ذُنوبُ
وإِنِّي مــن بيــوتٍ طَاهِرَاتٍ ... بها طهُرَتْ من الناسِ القُلوبُ
«عسى الكَرْبُ الَّذي أمسيتُ فيه ... يكونُ وراءَه فــرجٌ قَرِيبُ»[1]

هاتف: أيُوسفُ كيف تطلبُ نَصْرَ عَبْدٍ ... ضَعِيفٍ حين يُسألُ لا يُجِيبُ؟!
أتطلبُ طبَّ دائِكِ من مَرِيضٍ؟! ... ولا يَشْفِي الضَّنَى إلَّا الطَّبِيبُ

* * *

(١) ضمنًّا هنا بيتًا لهدبة بن الخشــرم، انظــر أمالي القالي (٧١/١)، ترتيــب محمد عبد الجواد الأصمعي، نشر دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٦م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

الفصل الرابع

نسخة مجانية

في الليل البَهيم جلست زليخا تناجي الكواكبَ والشُّهبَ وتشكو الوَجْدَ والهُيَام.

زليخا:

يا شُهْبُ رِقِّي لمن مَحْبُوبُه بانا ... مُهْفَهَفُ العِطْفِ يَحْكِي قدُّه البانا

إذا بدا وَجْهُه في ظُلمةٍ قُشِعَتْ ... كأنَّما قد تَبدَّى الصبحُ مُزْدَانَا

ولو بدا وجهُه والناسُ جانبَه ... لخِلْتَهُ مَلَـكًا والناسُ غِيلَانا

ولو تبدَّى وكان البدرُ مُكتملًا ... لَتَنْظُرُ البَدْرَ في الزرقاءِ خَزْيَانَا

فإنْ تُرِدْ لؤلؤًا فانظرْ لمَبْسِمِه ... وانظرْ إلى شَفَتَيْه تلقَ مَرْجَانا

وإنْ أردتَ ابنةَ العُنقود صافيةً ... فارشُفْ من الرِّيقِ ما يُلْقِيكَ سَكْرَانا

وانظرْ إلى وَجْنَتَيْه في جَمَالِهما ... تعجبْ إذا ما ترى ماءً ونِيرَانا[1]

فالناسُ كالليلِ وهْوَ الصُّبْحُ مُبْتَسِمًا ... شتَّانَ بينَ الدُّجَى والنُّورِ شتَّانَا

قد لامني نِسْوةٌ في حُبِّه سَفَهًا ... فمنذ لاح رأيْنَ الحُسْنَ فتَّانَا

حاض النساءُ وجنَّتْهُن غُرَّتُهُ ... وقُلْنَ حـاشَ لبَارِينَا ومَوْلَانَا

وقوةُ الحُسْنِ لِلْإِنْسَانِ قَاهِرَةٌ ... وإن يكُنْ خَصْمُها في الناسِ سُلْطَانا

فيا نجومُ اشهدي عندَ الحبيبِ بما ... أذوقُه من عذابِ البُعْدِ أَلْوَانَا

وخبِّريهِ بجِسْمِي في نَحَافَتِه ... ونَبِّئِيهِ بدَمْـعِ العَيْـنِ هتَّانَا

صِفِي ذُبُولِي نُحُولِي حُرْقَتِي وَلَهِي ... عَسَـى يَرِقُّ فُؤَادٌ كَانَ صَوَّانا

فلو يَرِقُّ لحالـي وهْو مُبْتَعِدٌ ... لطار قلبي على الفِرْدَوْسِ جَذْلَانا

لو باع لي قُبْلَةً بالرُّوح أبذلُها ... وإن يَرُمْ رَمَقِـي أبذُلْه مَجَّانَا

---

(١) والمعنى أنه وجهه جمع بين اللون الأحمر الشبيه بالنار مع ماء النضارة.

QaradawiBooks.com

ذهبت زليخا إلى الملك تطلب منه الأمر بإخراج يوسف:

زليخا: مَلِيكَ البــلادِ فــداكَ البلادُ كَفَى للفتــى زاجرًا ما مضى
فمُرْ عَسْكَرَ السِّجنِ أن يُخرجوه فلا حارَبَتْكَ ســيوفُ القَضَا

قطفير: أيَــا مَلِكِي فــداكَ أبي وأُمِّي وأفدي عَرْشَكُم بَدَمي ولَحْمي
ســألتُكَ أن تُخَلِّيَهُ ســجينًا فذلك جالــبٌ لــي كُلَّ هَمِّ
وإنَّ الصِّــلَّ إن أفرجتَ عنه أمات الحابِسِــينَ بنَفْثِ سمِّ

ظلت زليخا تبكي وتلوم نفسها على إدخاله السجن.

زليخا: آهِ وا لَوْعَتَــاهُ ضلَّ سَــبِيلي وخَبَا مِصْبَاحي وحار دَلِيلي
آهِ إنِّي حَفَرْتُ رَمْسِي بخَمْسِي هكذا يا نَفْسِي عِقَابُ العَجُولِ
آه إنِّي قَتَلْتُ نَفْســي بنَفْسي كيف أَصْمَيْتُها بسيفي الصَّقِيلِ
آه إنِّي جَدَعْــتُ أنفي بِكَفِّي فاشْمَتِ اليومَ واحتكمْ يا عَذُولي
آهِ أبْعَدْتُــه فكنــتُ كمَنْ يُطـ ـفِئ غُــلَّ النيــرانِ بالبِتْرُولِ
آه أَيْدِي الغرامِ قــد أنْهَكَتْنِي ليتَ ماءَ المُحيطِ يَشْفِي غَلِيلي
آهِ مــن لوعــةِ الفِــراقِ وآهِ يا ليتَ آهِ تَشفي فؤادي العَلِيلِ
ليتَ شِعْري ماذا جَنَيْتُ فعُذِّبْـ ـتُ بِدُنَيَايَ فِي العَذَابِ الطَّوِيلِ
إن في قَلْبِــيَ المَهِيضِ لدَقًّا دُونَه دقُّ صاخبــاتِ الطُّبُولِ

يقوم الملك بالليل مرعوبًا من حلم رآه؛ وهو سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، الْتَوَت اليابساتُ على الخُضْر فأيبستها.

QaradawiBooks.com

الملك للمُعَبِّرين: أرانـــي الـلـيـلُ حُـلْـمًـا أطـــار مِـنِّـــي جَـنَـانِـي
كـأنَّـمـا الـرعـبُ منه مُـهَـنَّـدٌ ذو سِـنَـانِ
رأيـــتُ سَـبْـعَ عِـجَـافٍ يـأكـلـن سَـبْـعَ سِـمَـانِ
ومـثـلـهـا سُـنْـبُـلَاتٌ مِـنْ يَـابِـس وجِـنَـانِـي
بـــاللهِ طـمـئـنْ فُـــؤَادي وكـــنْ طَـبِـيـبًـا لـشَـانِـي
هَـلْ فيه قُـبْـلَـةُ دَهْـرِي أم عَـضَّـةٌ مـن زَمَـانـي؟!

رمَّال: مَلِيكَ الخَيْرِ دُمْتَ لنا سعيدًا ولا بَرِحَتْ كَوَاكِبُكَ السُعُودَا
رأيتُ الرَّمْلَ أبكمَ لَمْ يُجِبْني ولم أسـمعْ عَوِيلًا أو نَشِيدَا

رمَّالٌ آخر: ألا دُمْ أيُّها المَلِـكُ المُفَدَّى كآفـاقِ الورى في الاِتِّسـاعِ
أراكَ تَعِيشُ سبْعَ سنينَ صُلْبًا قَوِيَّ الجِسْـمِ مَفتولَ الذِّرَاعِ
وسبعَ سنين تَلْقَى السُّقْمَ فِيهَا طويلَ الباعِ مَرْفوُعَ الشِّـراعِ
وهـذا ما أبـانَ إلـيَّ رَمْلِي وذلك كلُّ ما في المُسْـتَطَاعِ
فلا تحزنْ فإنَّ الشـمسَ فينا نراها في انخفـاضٍ وارتفاعِ

جمهور المُعَبِّرين: يا سـيِّدَ الملـوكِ لا تَجْزَعِ من ذلـك الحُلْـمِ ولا تَهْلَعِ
أضغـاثُ أحـلامٍ وأَوْهَامُها يَضِلُّ فيها العالِـمُ اللَّوْذَعِي
كلَّـتْ عُلومُنـا وأفهامُنـا عن حَلِّ هذا المُعْضِلِ المُفْزِعِ

الملك في حزنٍ ويأس:

سبحانَكَ اللهُ قلبي صارَ مُشْتَعِلًا فَأَرْوِ شُعْلَتَهُ مِنْ بَحْرِكَ الطَّامِي

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

رَمَى الأَسَى في فؤادي كُلَّ أَسْهُمَهُ وحارَ عقلي في بَيْدَاءِ آلَامي
يَا شُؤْمَ حُلْمٍ دَهَانِي فَارْتَمَيْتُ بِهِ طَرِيحَ هَمٍّ وأَشْــجَانٍ وأَسْقَامِ
كأنَّه عُقْدَةٌ في الدَّهْرِ مُعْضِلَةٍ جلَّت عن الحَلِّ واستعصت على الرَّامِي
كأنَّه السِّرُّ في صَدْرِ القَضَاءِ فَلَا يَحْتَلُّ مَكْنُونَه أبطالُ أَفْهَامي
كأنَّه مُســتحيلٌ فــي تَعَقُّدِه احتار في حَلِّه المِصْرِيُّ والشَّامِي
لم يَدْرِه عالمٌ إلَّا انثنى خجلًا وقال لي: تِلْكُمُو أضغاثُ أحلامِ
فيا لقلبي، مــا أدري حقيقَتَه أحُلْمَ صِدْقٍ أرى أم بعضُ أوهامِ
ربَّاه أرسلْ رسولًا من لديك لكي يَحُلُّ ذا اللُّغْزَ وابعثْ غيثَكَ الهَامِي

الساقي يذكر يوسفَ ومعرفته بتعبير الرؤيا، فيُمَنِّي الملكَ بمجيء الفرج، فيدخل على يوسف السجن، ويقصُّ عليه الرؤيا.

الساقي: أَلَا أيُّهــا الصِّدِيقُ بِــاللهِ أفْتِنَا وهيَّا أَنِرْ مصباحَ عِلْمِكَ واهْدِنا
عسى أن يكون اليوم بُشرى ورحمة فنجلسَ طُرًّا تحت أجنحةِ المُنَى
وتخرجَ من تلك السُّجونِ مُظَفَّرًا وتحملَ رايات السعادةِ والهَنَا

يوسف معبِّرًا: سَــبْعَ سِــنِينَ تزرعون دَأْبَا فكلُّ ما فيها يَفِيــضِ خِصْبَا
والحصدُ فلتُبقوهُ في سُــنْبُلِهِ إلَّا بقَــدْرِ الأَكْلِ لَيْسَ أَرْبَى
إذ بعدَها ســبعٌ شــدادٌ كلُّها تَفِيضُ قَحْطًــا وتفيضُ جَدْبَا
يأكُلْنَ ما ادَّخَرْتُمْ مِنْ زَرْعِكُمْ إلَّا قليلًا فــي الحصونِ يُخْبَا
وبعدَها يجيءُ عامٌ مُخْصِبٌ تُصــبُّ فيــه البــركاتُ صَبًّا

QaradawiBooks.com

فتَعْصِـرون عِنَبًا وسِمْسِـمًا وتأكلـون عِنَبًـا وقَضْبَـا
وتكثـرُ الأنْعَامُ تَرْعَـى كَلَأً وتغتذِي حشائشًـا وعُشْـبَا

يعود الساقي إلى الملكِ فيقصُّ عليه التأويل:

الملك: هاتوا إلـيَّ به حتـى أُكَلِّمَه وتَشْتَفِي النَّفْسُ من شكٍّ سَرَى فيها
الساقي: يا يوسفُ اخْرُجْ معي للمَلْكِ تُخْبِرُهُ تَأْوِيـلَ رُؤَيَتَهُ حَتَّـى تُجَلِّيهَا
يوسف: لا أتركُ السِّجْنَ إلَّا بَعْدَ تَبْرِئَتِي مِمَّا رُمِيتُ بِهِ ظُلْمًا وتَمْوِيهَا
فَارْجِعْ إِلَيْهِ ومُرْهُ يَشْتَفِي خَبَرِي مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيهَا

يرجع الساقي إلى الملك ويخبره، فيأمر الملك بإحضار النسوة، وبينهن امرأة العزيز زليخا.

الملك: إِيـهِ يَا أَيُّهـا النِّسَـاءُ اللَّاتِي رَاوَدَتْ يُوسُفًا عَلَى الفَحْشَاءِ
مَا وَجَدْتُـنَّ عِنْـدَهُ: أعفافٌ أم وَجَدْتُنَّـهُ مِـنَ الْأَغْوِيَاءِ؟
النسوة: لا ورَبِّ الخضـراءِ والزرقاءِ ما عَلِمْنَـا عَلَيْهِ مِنْ فَحْشَـاءِ
زليخا: إنَّـه طـاهـرٌ ولا كـالـمَـاءِ إنَّه أصفى من أديمِ السـماءِ
ما رَأَيْنا عَفافَـه في ابنِ انْثى غيرَ مِنْ أُكْرِمُـوا من الأنبياءِ
إي وربِّي ما مِثْلُه من عِفِيفٍ ثابـتٍ كالرواسـخِ الشَّـمَّاءِ
مَـا أَرَاهُ من التُّـرابِ خَلِيقًا بل مَـلَاكًا في طُهْـرَةٍ ونَقَاءِ
أنـا راودْتُـه ففـرَّ وولَّـى كفِـرَارِ الجبـان يـومَ اللقاءِ
أنـا راودتُه فقال: معـاذَ اللـ ـه أنِّـي أخـونُ كالأَغْبِيَاءِ

غير مرخص للطباعة

كان كالْفَأْرِ حيــنَ عاين هِرًّا فغَــدَا مُسْــرِعًا بــلا إبْطَــاءِ
ثمَّ هددتُــه بإدخالِه السِّــجْـ ـنَ لِيَحْنُو[1] إنْ ذَاقَ بَعْضَ الْبَلَاءِ
فارتضى السِّجْنَ قائلًا: هُوَ أَحْلَى إنَّمَا السجنُ عند كَيْدِ النِّساءِ
إنَّما السِّجْنُ أن أَعِيشَ أَسِيرًا لِلْعُيُــونِ النَّوَاعِــسِ النَّجْلَاءِ
إنَّنــي قَــدْ رَمَيْتُــهُ بِاجْتِرَامٍ وَهْوَ فِــي الْحَــقِّ أوَّلُ البُرَآءِ

الملك: هَاتُوا إليَّ به أجعلْه لي عضُدَا وأتَّخِذْه لأمرِ المُلْكِ مُسْتَنَدَا

يوسف وهو خارج من السجن:

لَا غَرْوَ إنْ ذقتُ السُّجونَ ومُرَّهَا إنَّ البــلاءَ مُــوَكَّلٌ بالْأَفْضَلِ
مَنْ ذَا رَأَى يَوْمًا غُرابًا زُجَّ في قَفَصِ الصُّيُودِ كما نَرَى لِلْبُلْبُلِ

ثم يلتفت إلى السجن مخاطبًا له:

يا سِــجْنُ يا مقبــرةَ الأحياءِ ومَهْبِــطَ البــلاءِ والضــرَّاءِ
ومُشْمِتَ الحُسَّــاد والأعداءِ ومُظْهِــرًا باطــنَ الأصدقــاءِ
كم فِيكَ محبــوسٍ بلا جنَاءٍ مُبَــرَّإٍ أنْقَــى مــن الأَنْــوَاءِ
وَافَى السُّجُونَ غَرْسُ الْأَنْبِياءِ مِنْ غَيْرِ مَــا ذَنْبٍ ولا اعْتِدَاءِ
إلَّا عفافًــا عن هَوَى النســاءِ فَلْيَقْتَــدِ البِــرِيءُ بِابْتِلَائِــي
ولْيَرْتَقِبْ من بارئ السَّــمَاءِ تــفــريــجَ هــمٍّ ودواءَ دَاءِ
لا بدَّ بعدَ البــؤسِ من نَعْمَاءِ والنُّورُ يأتي عَقِــبَ الظَّلْمَاءِ

(١) سكنت واو (يحنو) مع أنها منصوبة للضرورة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الملك بعد أن مثُل يوسفُ في حضرته:

هَــذِهِ مصــرُ وِهَــادٌ ورُبًــا ... وســهولٌ ووُعُورٌ في يَدَيْكْ
وخِــزَانَــاتِــي ومَــا أَمْـلُـكُـهُ ... كُلُّها قد أصبحت في قَبْضَتَيْكْ
فإِذَا مَا شِــئْتَ فاعزلْ عامِلًا ... وإذا شــئتَ فقَرِّبْــهُ لَدَيْــكْ
أغْنِ مَا شئتَ وأفْقِرْ مَنْ تَشَا ... لَيْسَ فِي مِصْرَ امْرُؤٌ يَعْلُو عَلَيْكْ
أنــتَ عَيْنِي ولِســاني ويَدِي ... قُوَّتي أســلَمْتُها اليومَ إلَيْكْ

مات العزيز قطفير عقب خروج يوسف من السجن، فصار يوسف عزيز مصر، يأمر وينهى، ويبسط ويقبض، حتى انقضت سبع السنين المُخْصِبة ودخلت السبعُ المجدبة، فجاء إخوة يوسف إلى مصر يطلبون القوت.

يوسف لإخوته: ماذا أتى بكم في بَطْنِ مَمْلَكَتِي ... إلَّا التجسُّسَ عن مخبوءِ أحوالي

الإخوة: واللهِ ما ســاقنا قهرًا لبلدَتِكُم ... إلا ظُبَا مرضٍ للنــاس قتَّالِ
القَحْطُ أعملَ فينا سيفَه فغَدَتْ ... له الرِّقابُ خُضوعًا ذاتُ إِذْلَالِ
وسَدَّدتْ يدُه للناسِ أسْهُمَها ... والقحطُ أبرعُ ســيَّافٍ ونَبَّالِ
وكشَّــرَتْ للورى أنيابُه حَنَقًا ... حتى لتَحْسِبُها أَنْيَابَ أغْوَالِ
لنا أخٌ مــن أَبِينا الذئبُ مَزَّقَه ... فغادر الأبَ في حزنٍ وتَهْطَالِ
يَبِيتُ يبكي إلى أن جفَّ مَدْمَعُهُ ... والليلُ يَرْثِي لدَمْعٍ منه سَيَّالِ
يكادُ يَقْضِى أسًى لولا وُجودُ أخٍ ... شقيقِ مَنْ مات يُخْبِي حُزْنَه الغالي

يوسف: إنْ كُنْتُمو صَادِقِي الْأَقْوَالِ فلْتَفِدُوا ... به عَلَيَّ إذا عدتــم إلى الآلِ
ألا تَــرَوْنَ لِإكْرَامِي وِفَادَتَكُم ... كذاكَ أُعْطِيكُمُو مِنْ خيرِ مِكْيالِ
فإنْ تَعُودوا ولم تأتوا به مَعَكُم ... فليس عندي سوى سَجْنٍ وأَغْلَالِ

QaradawiBooks.com

الإخوة: سنَبْذُلُ الجهدَ في إتيانه معنا حتى نُلِينَ أباه لِيــنَ مُحْتَالِ

يوسف: أعيدوا بضاعتَهم في الرِّحَالِ عَسَاهم إذا ما مَضَوْا يَرْجِعُونْ

الإخوة وقد رجعوا إلى أبيهم:

لقد مُنِعَ الكَيْــلُ منَّا إلى أنْ نَعــودَ بــأخٍ لنــا مــن أبينا

فأرســل أخانا صَحِيبًا لكيلا نُــرَدَّ وإنَّــا لــه حَافِظُونَــا

يعقوب: أَأَعْثُــرُ فــي حَجَــرٍ مرَّتَيْنِ؟ إذن أنــا حينـئـذٍ أحمَــقُ

فمن ذلك الجُحْرِ قَبْلًا لُدِغْتُ وفارقنــي ولــدي الأَسْــبَقُ

وقَدْ لَذَعَتْ هــذه النارُ قلبي فكيــفَ أعودُ لمــا يُحْرِقُ؟!

الإخوة يفتحون الرحال، فيجدون بضاعتهم فيها.

الإخوة: ماذا تُرِيدَنَّــه؟ هذي بضاعتُنا ردَّت إلينا وقــد عُدْنا مَلِيئِينَا

فَأْذَنْ لنا بأخينــا كي يُصَدِّقَنا عزيزُ مصرَ فيُحظينا بما شِينَا

يعقوب: هاتوا مَواثِيقَكم أن تَرْجِعُوه ولا تُضيعوه اختيــارًا أو قَدِيرِينَا

الإخوة: أبانا بحقِّ المَليــكِ الجليلْ مُــذِلِّ العزيــزِ مُعِــزِّ الذَّليلْ

مُجَرِّعِ نُمْــرُوذَ كأسَ الرَّدَى ومُنجى من النَّارِ جِلْدَ الخَلِيلْ

بربِّي ســنَحفظُه ما استطعنا وسيفُ القَضَاءِ علينا صَقِيلْ

يعقوب: خُــذوه إذن والإلــهُ شــهيدٌ وربِّي على ما نَقــولُ وَكيلْ

الإخوةُ يذهبون إلى مصرَ ومعَهم أخوهم.

الإخوة ليوسف: جئنا بمن تبتغي يا خيرَ من وُلِدُوا

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يوسف: أهلًا وسهلًا بكم يا خيرَ من وفدوا
عندي لكم كلُّ ما تبغونَ من مُؤَنٍ تُعْطَوْنَ منها بما لم يُعْطَه أحدُ

يهيئ يوسفُ لهم مأدُبة ويدعوهم إليها، ويجعل لكل اثنين مقعدًا، فقعد كلُّ أخوين على مقعدٍ، وبقي بنيامين وحده، فبكى.

بنيامين: ويْحَ الزمانِ فهل عندي له تِرَةٌ؟ حتى رمى سهمَه أبناءَ راحيلَا
لو كان يوسفُ حيًّا ما بكيتُ ولا بقيتُ وحدي كَسِيرَ الطَّرْفِ مَخْذُولَا
فما أَعَقَّ زماني حيث جرَّعني مُرَّ الفراقِ فأمسى القلبُ مَتْبُولَا!
والفِكْرُ مُشتغِلًا، والقلبُ مُشْتَعِلًا والدمعُ مُنهمِلًا، والعقلُ مَذْهُولَا
قد كشَّر الدهرُ حتى خِلْتُه أسدًا وقطَّبَ الوجهَ حتَّى خِلْتُه غُولَا
فيا فؤادي تصبَّرْ لا تكنْ جَزِعًا «لِيَقْضِيَ اللهُ أمرًا كان مَفْعُولَا»
واصبرْ على صدمةٍ لا كان مَوْقُعها فـ«إنَّما الصبرُ عندَ الصدمةِ الأولى»[1]
فهذه سُنَّةُ المولى ولستَ ترى لِسُـنَّةِ اللهِ تبديـلًا وتحويلَا

يوسفُ: أتَرْتَضِي لامْرِئٍ مِثْلِي يكونُ أخًا يَصْبُو بحُبِّكَ إجمالًا وتفصيلَا؟

بنيامين: للهِ أنتَ!! وهل بينَ الرجالِ أخٌ يكونُ مِثْلَك مَحْسُوسًا ومَعْقُولَا؟!
ومَنْ يُدانِيكَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ وذاك نورُك يحكي نورَ جِبْرِيلَا
عَظُمْتَ قدرًا ولكنْ لستَ لي بأخٍ وما وُلِدْتَ ليَعْقُوبٍ ورَاحِيلَا

(١) نص حديث متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦)، كلاهما في الجنائز، عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

يوسف: إنِّي أخوكَ فلا تَحْزَن لِمَا فَعَلُوا وسوفَ يَظْهَرُ سيفُ الحَقِّ مَسْلُولَا
فالحمدُ لله بَعْدَ البُعْدِ جمَّعنا وزاننا من زُهورِ الوَصْلِ إكليلَا
فأصبح الصدرُ بعدَ الضِّيقِ في فَرَجٍ وأطلق اللهُ قلبًـا كان مَكْبُولَا
لا يحزنُ المرءُ مهما ناله كرْبٌ ما دام بالعينِ عَيْنِ الله مَشمولَا
فلا تُنْبِئْهُمو واكتمْ سـرائرنا

بنيامين: إنِّي سأبقى هنا لا أتركُ النِّيلَا

يوسف: اصبرْ إلى أن أدُسَّ الصاعَ مُخْتَفِيًا في جوفِ رَحْلِكَ حتَّى تبرحوا مِيلَا
فإنْ بَرِحْتُم نُناديكم بسِرْقَتِكُم وأَسْـتَرِدُّكَ بالإكرامِ مَشمُولَا

وضع يوسـفُ الصاعَ في رحل أخيه، ونادى المنادى على إخوة يوسف بعد أن برحوا.

المنادى: أيُّها العِيرُ البَثُوا يـا خَائِنُونْ كيف تأتونَ إلينا تَسْـرِقُونْ؟
الإخوة: يا لـه عـارًا إذا جِئنـا لِكَيْ نُطْعِمَ الأهلَ فنأتي مُفسدينْ؟
المنادي: امكُثُوا حتى يُرى في أمْرِكُم
الإخوة: ما لكم يا قَوْمُ ماذا تَفْقِدُونْ؟
المنادى: صاعَ مولانـا تعالى قـدْرُهُ وهْوَ مصنوعٌ من التِّبْرِ الثَّمِينْ
«ولمنْ جـاء به حِمْـلُ بَعِيـ ـرٍ» وما غَيْرِيَ بالحِمْلِ ضَمِينْ
الإخوة: حـاشَ للعِفَّـةِ أن نَسْـرِقَهُ ومَعَـاذَ اللهِ ربِّ العالميـنْ
المنادى: وبماذا يَحْكُـمُ المَلْـكُ إذَا كُنْتُمُو يا قَوْمُ قَوْمًا كَاذِبِينْ؟!
الإخوة: مَنْ يَكُنْ في رَحْلِه فهو الجَزَا هَكَذَا نَجْزِي الطُّغاةَ الظالمينْ

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية

يفتش يوسفُ في رحالهم قبل رَحْلِ أخيه.

يوسف: فتِّشــوا فــي رحــلِ هــذا

العمال: ليس فيه

ثم يفتشون في الرحال واحدًا واحدًا.

لا ولا في ذاكَ من شيءٍ دفين

ليــس فــي تلــك جميعًــا

يوسف يشير إلى رحل بنيامين:

فَتِّشُوا ذلك الرحلَ عسى فيه يَكونْ

العمال في ضجة: ها صُوَاعُ الْمَلْكِ مَخْبُوءٌ بِهِ!

عامل: قَاتَلَ اللهُ أَخَا الكَذِبِ الخَؤُونْ

الإخوة لبنيامين: يَا بَنِي راحيلَ كم ذُقْنَا الأذى مِــنْ بَلاياكم وممَّــا تَعْمَلُونْ

يذهبون ليوسفَ مستعطفين.

الإخوة: أَلَا أَيُّهَــذَا العزيــزُ الأميــنْ لجأنا إليــك كحِصْنٍ حَصينْ

فبَيْــنَ عُيونِــكَ نُبْــلٌ يَفُوحُ وبيــنَ جَبِينِــكَ نــورٌ كَمِينْ

قرأنــا بوَجْهِــكَ آيَ النَّدَى فرُحْمَى لنا يا أخا الأَكْرَمِينْ

فــإنَّ لنــا قِصَّــةً لــو وَعَتْهَا لحنَّتْ إليها لُيُــوثُ الْعَرِينْ

أَجَلْ قصةٌ تُحْــزِنُ الْفَرِحِينَ ولكنَّهــا قــد تَسُــرُّ الحَزِينْ

ولسنا لُصُوصًا فَدَتْكُ النُّفُوسُ «وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِــدِينْ»

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

فـدعْ ذاكَ وأْخُذْ فَتًـى غَيْرَهُ فـإنَّ أَبَـاهُ دَهَتْـهُ السُّـنُونْ
بوَجْهِكَ نُقْسِـمُ أن تَفْتَديهِ[٦] وألَّا تُخَيِّـبَ مِنَّـا الظُّنـونْ
ورُحْمَـى لنا سـيِّدي رَحْمَةً فَـ«إنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِـنِينْ»

يوسف: أنجزي البَرِيءَ بذنبِ المسيءِ إذن هَرَبَ العدلُ مِنَّا وفَرَّا؟!
وهلْ يَحملُ الأخُ ذنبَ أخيهِ ويُجْزَي أبٌ إن جَنَى الابنُ وِزْرَا؟!
وفـي أيِّ عَصْـرٍ وأيِّ زمانٍ تحمـلُ وازرةٌ وِزْرَ أُخـرى
ومَنْ يقبضِ الجَمْرَ لا يَحْتَرِقْ سـوى كفِّه ليس يُحْرَق غَيْرَا
إذا حُمِّلَ البَرُّ ذنـبَ الفَجَورِ فوِرْدُ المَنِيَّـةِ أحلى وأحرى

استيئسوا من يوسف وعزموا على الإياب إلا كبيرهم.

الإخوة: أيْ أبانا ما قضـى اللهُ يكونْ والورى عن حُجُبِ الغيبِ عَمُونْ
بعـد أن كِلْنا وسِـرْنا آمِنِينْ أقبلَ القومُ وقالوا: سـارقونْ
فحَلَفْنـا إنَّنـا لسـنا ذَوي سَـرِقَاتٍ لا ولا ممَّن يَخُونْ
فتَّشـوا في رَحْلٍ كُلٍّ وَجَدُوا رحْلَ بنيامينَ بـه ما يَفْقِدونْ
فاسْـتَرَقُّوه جَـزَا سِـرْقَتِهِ بعد أن كُنَّا جميعًـا مُنْكِرِينْ
واسـألِ العِيرَ التـي كُنَّا بها قطـع اللهُ لسـانَ الكاذِبِيـنْ

يعقوب: أوَّاهُ من حربِ هذا الدَّهْرِ أوَّاهُ اليوم قد حلَّ بي ما كنتُ أخشاهُ
تلك الحياةُ سرابٌ لا بقاءَ لها وذلك الدَّهْرُ لا تبقى عَطَاياهُ

(١) سكنت ياء (تفتديه) مع أنها منصوبة للضرورة.

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

رمانيَ الدَّهرُ سهمًا فاصطبرتُ له ... فما كَفَى ذاكَ حتَّى جاء ثنَّاهُ

كسائرٍ سار في أمنٍ ومذ عثُرَتْ ... رِجْلاه لم تَبْرَحْ العَثَرَاتِ رِجْلَاهُ

قالوا: غدا يوسفٌ للذئبِ مُفْتَرَسًا ... واليومَ ينحو أخوه الباقِ مَنْحَاهُ

بل سوَّلَتْ لَكُمُو أمرًا نُفُوسُكُمو ... فمَنْ بأحكامِ الِاسترقاقِ أَدْرَاهُ؟

فاثبُتْ فؤادي ولا تهْلَعْ لرُزْئِهِمَا ... واصبرْ على كلِّ ما يقضي به اللهُ

من ينتظرْ فرجَ المولى ورحمتَه ... لم يُخزِه ربُّه حاشـــاهُ حاشاهُ

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الفصل الخامس

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

جدَّدت نكبةُ يعقوبَ في بنيامين حزنَه وأسـفَه على يوسف، فبقي مُقَضَّ المضجع، سـائل المدمع، متشـتت البال، ولبث في الليل يناجي نفسه بآلامه وأسقامه، وتذكر أيَّام يوسف وأخيه باكيًا.

يعقوب: وَيْحَ هذا الدَّهْرِ كم أردى عُقَابَا ... وهْو لا يخشى حسـابًا أو عِقَابَا؟!

تسمعُ الأقوالَ من فيه عِذَابَا ... ويريكَ الفعلَ كالمُهْلِ عَذَابَا

ويحَه كم وضع النَّسْـرَ إلى ... دَرَكِ الـذُّلِّ فخـلَّاه غُرَابَـا

وارتمى فـي الأرضِ منهوكَ القُوَى ... وهْوَ قبلَ اليومِ كم ناجى الشِّهَابا

ويحَ هذا الدَّهْرِ إنْ يومًا صحا ... كشَّرَ النَّابَ وأبدى الاِضْطِرَابَا

كان لي بالأمسِ صَحْوًا جَوُّهُ ... لا أرى فيه غَمَامًا أو سَحَابَا

شَمْسُـه مُشْـرِقةٌ وضَّـاءةٌ ... لا ترى فوقَ مُحَيَّـاهُ حِجَابَا

رِيحُـه إمَّـا نَسِـيمٌ أو صَبًا ... تُنْعِشُ القلبَ وتَسْقِيهِ الرُّضَابَا

لم أكدْ ألثُمُ ثَغْرَ الدِّهْرِ نَشْـ ... ـوَانَ حتى انقلب الحالُ انقلابا

لم يكدْ يدنو فَمِي من خَمْرِهِ ... إذْ رأيتُ الخمرَ في حَلْقِيَ صَابَا

فبدا مـا كان شَـحْمًا وَرَمًا ... ورأيتُ الماءَ قد كان سَـرَابَا

قَلَبَتْ كفَّاه لي ظَهْرَ المِجَـ * ... نِّ وأبـدى ليَ أظفـارًا ونابا

وأثار الجـوُّ ريحًـا عاصفًا ... يملأ الكـونَ غُبـارًا وتُرابَا

واختفت عَنِّي سريعًا شمسُه ... وارتدت من حُلَلِ القارِ ثِيَابَا

وبـدت أرجـاؤه مُـغْـبَـرَّةٌ ... واسـتحال الصَّحْوُ والصَّفْوُ اكتئابَا

فـكأنَّ الدهـرَ ليـثٌ جائعٌ ... وأنـا ظَبْيٌ رأى فـيَّ الطِّلَابا

QaradawiBooks.com

وكأنَّ الدهْـرَ هِـرٌّ وأنـا جُرْذٌ آنَسَ لَحْمِي مُسْـتَطَابا
فغَدا يُظْهِـرُ لي مـن مَكْرِهِ أنَّني خِلُّكَ لا تخشى حِسَابا
فرماني في سـويداءِ الحَشَا رَمْيةً شَنْعَاءَ منها القلبُ ذَابَا
ودَهَانـي فـي حَبِيبـي لَيْتَهُ أَخَذَ النَّاسَ شُـيوخًا وشبابَا
خطفـتْ أَيْدِيهِ مِنِّي يُوسُـفًا آهِ مَا أعظـمَ ذا الخَطْفِ مُصَابَا!
ما كَفَاه يوسـفَ حتَّى انثنى نَحْوَ بِنْيامِينَ لا يَخشـى عِقَابَا
خَطَـفَ البَدْرَيْنِ مِنِّـي لَيْتَهُ خَطَفَ الرُّوحَ فأُسْكِنْتُ التُّرابا
خَطَفَ الدَّهْـرُ مِنِّي قلبي فَلَا تأمنُوا الدّهْرَ إذا ما العَيْشُ طَابَا
واتَّقُوا مِنْ سُـمٍّ فيه فهْوَ في كلِّ آنٍ يُسـمِعُ الناسَ خِطابَا
أيُّها الناسُ احذروا من صَوْلَتِي واحذروا بَطْشِـي فإنِّي لن أَهَابا

تأخذ يعقوبَ سِـنَةٌ من النوم، فيرى طيفَ يوسـف أمامـه، فيَبُثُّه وجْدَه ويشكو إليه حاله.

يعقوب للطيف: حَبِيـبَ الـرُّوحِ والجِسْـمِ ونـورَ الـعَـيْـنِ والـصَّـدْرِ
ألا تَـرْثِـي لـمُـكْـتَـئِـبٍ هَمُـولِ الدَّمْـعِ كالقَطْـرِ
ألَـمْ يَـأْنِ الـلـقـاءُ لنا بدُنـيـانـا أوِ الـقَـبْـرِ
فـإنِّـي صـرتُ كـالْـغَـرْقَـا نِ فـي مُـعْـتَـرَكِ الـبَـحْـرِ
إذا مـا حـاولـتْ عَـيْـنَـا يَ غَمْضًـا سـاعةَ الفَجْـرِ
يَفِـرُّ النَّـوْمُ مِـنْ عَيْنِـي فِـرَارَ الظَّبْـيِ مـن بَبْـرِ

QaradawiBooks.com

فمـا نَومِـي سـوى جُـرْذٍ وَجَـفْـنِـي غَـيْـر سِـنَّـوْرِ
ولا دَمْـعِـي بـمُـنـكَـفٍّ ولا ثَـغْـرِي بـمُـفْـتَـرِّ
ولا فوقـي سـوى عِـبْءٍ ولا تحـتـى سـوى جَمْـرِ
ولا جَـوِّي سـوى غَيْـمٍ ولا بَـيْـتِـي سـوى قَـبْـرِ
ولا يومـي بـه شـمسٌ ولا فـي اللَّيـلِ مـن زَهْـرِ
ولا أَكْـلِـي إذا أُطْـعِـمـ ـتُ غَـيْـر الحَنْـظَـلِ المُرِّ
ولا يومـي سـوى شَـهْرٍ ولا ليلـى سـوى دَهْـرِ
ولا عامـي سـوى مائتَيْـنِ أو أَلْـفَـيْـنِ لا أدري
فمـا قبلـي ولا بعـدي رجـالٌ عُمِّـروا عُمْـري
ونـوحٌ إنْ يَعِـشْ ألْفًـا فليسـتْ لي سـوى عَشْـرِ

طيف يوسف: أبـي صبـرًا ولا تَحـزنْ فـإنَّ الخيـرَ فـي الصَّبْـرِ
سـألـقـاكـم وتـلـقـانـي بـلا حُجُـبٍ ولا سِـتْرِ
تـرى الأيـامَ بعـد عُبـو سِـهـا بـسَّـامـة الـثَّـغْـرِ

يعقوبُ يقوم من منامه فَزِعًا:

أحـقًّـا يـوسـفٌ حـيٌّ يَـلـوحُ سـنـاهُ كـالـبَـدْرِ؟
أحـقًّـا يـوسـفٌ حـيٌّ يَـفـوحُ شـذاهُ كالعِطْـرِ؟
أحـقًّـا لا يـزالُ جَـبِـيـ ـنُـه يـنـهـلُّ بـالـسَّـكْـرِ
أحـقًّـا بَـيْـنَ عَـيْـنَـيْـهِ تـفـيـضُ مَنَابِـعُ السِّـحْرِ

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

أحـــقًّـــا رِيـــقُـــه لَا زا لَ يَـسْـتَـهْـزِئُ بِـالْـخَـمْـرِ
إذنْ يـــا قلـــبُ لا تحـــزنْ ويـــا عيـــنَ الأســـى قَـــرِّي
إلهـــي طَمْئِنِّـــي فإنِّـــي حائرٌ أحيٌّ حبيبي أم تغيَّب في الثَّرَى؟!
فإن كان مَيْتًا فاللُّقَى ليس هاهُنا وَإِنْ كَانَ حَيًّا قُلْتُ: يَا قَلْبُ أَبْشِرَا

يعقوب تأخذه سِنَةٌ من النوم فيرى مَلَكَ الموتِ فيسأله.

يعقوب: عِزْرِيلُ هل خَطِفَتْ يداكَ حبيبي أم لم يزلْ في حُسْنِهِ الموهوبِ؟
بـــاللهِ نَبِّئْني وطيِّـــبْ مُهْجَتِي فعسى تُخَفِّفُ من أسى يَعْقُوبِ

عِزْرِيل: حبيبُكَ لا يـــزالُ على الحياةِ وما امتدَّتْ إليـــه يدُ المَمَاتِ
فأَرْخِ على الفؤادِ سِتَارَ صَبْرٍ فإنَّ الصبـــرَ مِفْتَـــاحُ الهِبَاتِ
فكم بَعْدَ الشـــقاوةِ من نَعِيمٍ وكم بعد البلايا من صِلَاتِ!

يعقوب في انشراحٍ وهزَّة:

لقد أَثْلَجَتْ كلماتُكَ صَدْرِي وكانـــت لجُرْحِـــيَ كالمَرْهَمِ
ولولا الضُّلوعُ أحاطت بقَلْبِي لطَار سُـــرورًا ولـــم يُحْجِمِ
فيا نَفْسُ طِيبِي ويَا عَيْنُ قَرِّي ويا ثَغْـــرُ جاء المُنَى فَابْسِـــمِ
فيوسفُ لا زال حيًّا صحيحًا مُنِيـــرَ الجَبِينِ ضَحُـــوكَ الفَمِ
ولا زال غضًّا كزَهْرِ الرِّياضِ يَسْـــخَرُ بالبَـــدْرِ والأنجُـــمِ
ولا بَرِحَ السِّـــحْرُ فـــي عَيْنِهِ ولا فَتِـــئَ اللَّحْظُ ذَا أَسْـــهُمِ

غير مرخصة للطباعة

يعقوبُ لبَنِيه بعد أن لاح الصباحُ واستيقظوا من النوم:

أَبَنِيَّ سيروا نَحْوَ مِصْرَ وسارعوا ... وتَحَسَّسوا عن يوسفٍ وأخيه
وارجو من اللهِ المُهَيْمِنِ رحمةً ... فـــاللهُ ناصرُ مَـــنْ يؤمِّـــلُ فِيهِ

يذهب الإخوة ويدخلون إلى مصر على يوسف.

الإخوة: ألا يا عزيزَ الجَاهِ لا زارَكَ الشرُّ ... لقد مسَّ أَهْلينَا كما مسَّنا الضُّرُّ
فرِقَّ لنا يا ابنَ الأماجد قابلًا ... بضاعَتَنا المُزجاةَ لا ضامَكَ الدَّهْرُ
وأوفِ لنا كيلَ المَبِيعِ وهَبْ لنا ... مِنَ الفَضْلِ ما يَرْضى به خُلْقُكَ الحُرُّ
يَكُنْ لك شُكْرٌ مِنْ صَمِيمِ قُلوبِنا ... ومن عِنْدِ مَوْلَانا المَكارِمُ والأَجْرُ

ينظر يوسف في الصاع ثم يخاطبهم:

الصَّـــاعُ يُخْبِرُنـــي بأَنَّكُمُـــو ... مِنْ بيتِ هُـــدًى مِلْؤُه الحِكَمُ
نُورٌ، فكم شَـــمْسٍ به ظَهَرَتْ ... فتَقَشَّـــعت بظُهُورهـــا ظُلَـــمُ
لكنَّ شَـــيْطَانَ الهوى لَعِبَتْ ... أَمْوَاجُـــهُ ورِيَاحُـــهُ بِكُمُـــو
فذَهَبْتُمُـــو بأَخِيكُمُو حَسَـــدًا ... تَرْمُونه في الجُبِّ لم تَجِمُوا
وأتيتُمُـــو بقَمِيصِـــه فذَبَحْـــ ... ـتُمْ سَـــخْلَةً من فَرْطِ غَيِّكُمُو
لَطَّخْتُمُـــو بِقَمِيصِـــه دَمَهَـــا ... وجَرَت بكـــم لأَبِيكُمو قَدَمُ
قُلْتُـــم بـــأنَّ الذئـــبَ مَزَّقَـــهُ ... والذئـــبُ مظلـــومٌ ومُتَّهَـــمُ
وبَكَيْتُمو ولـــرُبَّ ذي كَذِبٍ ... والدمـــعُ من عينَيْه مُنســـجِمُ
فهـــل افتكرتم يوســـفًا وأخا ... هُ وما فعلتـــم مثلَ مَنْ ظلموا

الإخوة: مَرْحَى! أَإِنَّكَ أنت يُوسُـــفُنا ... أنت الذي بالحُسْـــنِ مُتَّسِمُ؟

يوسف مشيرًا إلى شقيقه بنيامين:

أنا يوسفٌ حقًّا وذاك أخي ... الشملُ منَّا اليومَ مُلْتَئِمُ

الإخوة: تَاللهِ إنَّكَ خَيْرُنا عَمَلًا ... ولأنتَ فينا المُفْرَدُ العَلَمُ

ولأنتَ منَّا تاجُ مَفْرِقِنا ... ولأنتُ في عِرْنِينِنَا شَمَمُ

أنت الذي إنْ تَعْرُنا نُوَبٌ ... فنراكَ جيشًا ليس ينهزمُ

بك نْعْتلي الجوزاءَ مَفْخَرَةً ... ونُفاخر الأملاكَ كُلَّهُمو

لقد اصطفاكَ اللهُ بارِئُنا ... والفضلُ عندَ الله والكَرَمُ

من يَجْعَلِ التقوى الشِّعَارَ له ... والصبرَ ليس ينالُه ألَمُ

والصبرُ درعٌ غيرُ مُنْكَسِرٍ ... والصبرُ ركنٌ ليس ينهدمُ

واللهِ قد عظُمتْ خطيئتُنا ... أقْبِحْ بِجُرْمٍ ليس يُجتَرَمُ!

فاغفرْ لنا ماضِي ضلالَتِنا ... إنَّ الفضائلَ فيكَ تَزْدَحِمُ

والمَكْرُماتُ لديك جاثِيَةٌ ... والنُّبْلُ والإحسانُ والكَرَمُ

والصَّفْحُ شِيمتُكَ التي ظَهَرَتْ ... والحِلْمُ في بُرْدَيْكَ مُنْتَظِمُ

يوسف: لا إثمَ يَصْحَبُكم ولا حرجٌ ... فاليومَ يَغفرُ ربُّنا لَكُمو

والذنبُ مهما كان ذا عِظَمٍ ... في جانبِ الغُفرانِ مُنْهَدِمُ

فخُذُوا قَمِيصي ذاهِبِينَ به إلى ... يَعْقُوبَ للتَّهْنِيءِ والتَّبْشِيرِ

وَضَعُوا قَمِيصِي فوقَ صفحةِ وجْهِه ... يَرجِعْ بَصِيرَ العَيْنِ بَعْدَ ضَرِيرِ

وأْتُوا بأَهْلِكُمُ الجَمِيع لنَغْتَدِي ... في ظلِّ رَوضٍ بالهناءِ نَضِيرِ

QaradawiBooks.com

يعقوب يَشَمُّ رِيحَ يوسف.

يعقوب: أرى ليُوسفَ رِيحًا طاب مَوْرِدُها ... لولا مَخَافَةُ تَسْفِيهي وتَفْنِيدِي

وريحُ يوسفَ فوقَ المِسْكِ في أَرَجٍ ... تفرَّدَتْ في الشَّذَا عن كُلِّ مَوْجُودِ

إنِّي لأَطْرَبُ منها وهْيَ فائِحَةٌ ... كأَنَّني ثَمِلٌ مـــن بِنْتِ عُنْقُودِ

يا مَا أُحَيْسِنَها ريحًا وأطيبَها! ... إنِّي أَراها مِنِّي قَلْبِي ومَقْصُودِي

إذا حُرِمْتُ شَذَاها كُنْتُ في حُزْنٍ ... وإن شَمِمْتُ شذاها كنتُ في عِيدِ

أسباطُ يعقوب: ألا تزال على ما كنتَ فيه أخَا ... دمعٍ وهمٍّ وأحـــزانٍ وتَنْكيدِ

من مات فات، وهل مَيْتٌ يعودُ وقدْ ... أضحى فَرِيسَةَ بطنِ الأرضِ والدُّودِ؟!

يقبل يَهُوذا بالقميص.

يهوذا: أبْشِرْ أَبِي وانْشَرِحْ صدرًا ومِلْ طَرَبًا ... وقَرَّ عينًا بفضـــلِ اللهِ والجودِ

هذا قميصُ ابْنِكَ المحمودِ مَوْرِدُهُ ... ردَّ الكَرِيمُ علينا خيرَ مَفْقُودِ

عَزِيزِ مصـــرَ وناهيها وآمِرِها ... وحاكمِ الناسِ من بِيضٍ ومن سُودِ

يعقوب مخاطبًا أسباطه:

ألم أقلْ لكم إنِّي شَمِمْتُ شذَا ... حِبِّي وقَلْبِي ومأمولي ومَنشُودي؟

إنِّي لأعلم من مولايَ ما خَفِيَتْ ... عَلَيْكُمُو شَمْسُه من غَيْرِ مَجْهُودِ

فالحمدُ للهِ بَعْـــدَ البُعْدِ قرَّبنا ... واللهُ أكملُ مشكورٍ ومحمودِ

نسخة مجانية غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

يُلقي يهوذا القميصَ على وجهه، فيرتدُّ بصيرًا ويخاطب القميص:

يعقوب: ألا يا قميصَ الخيرِ أهلًا ومرحبًا فقد جئتني بالنورِ للعَيْنِ والقلبِ
فسبحانَ من سوَّاكَ بُشرى ورحمةً وطِبًّا من الآلام والهمِّ والكربِ
تُؤمِّنُ مُرتاعًا، وتُسْكِنُ ثائرًا وتُفرحُ مُلتاعًا، وتحنو على الصَّبِّ
فكنتَ لإبراهيمَ من نارِ خَصْمِه سلامًا وبردًا حاملًا رحمةَ الربِّ
كما جئتَ يعقوبًا فأطفأتَ نارَه بُشراكَ إيَّاهُ بمُقْتَرَبِ الحِبِّ
ويوسفُ لمَّا راح في الجُبِّ وارتمى أتيتَ له بالأُنْسِ في وَحْشَةِ الجُبِّ
وقد كنتُ في جبٍّ من الحزنِ ضَيِّقٍ فأَنْجَيْتَنِي منه بمَوْرِدِكَ العَذْبِ
فأهلًا وسهلًا يا قميصُ ومرحبًا فقد جئتني بالنورِ للعَيْنِ والقَلْبِ

يلتفت يعقوبُ إلى يهوذا:

على أيِّ حالٍ يوسفُ ابني تركتَه؟

يهوذا: عزيزًا على مصرَ له البَسْطُ والقَبْضُ
وأحكامُها في قَبْضَتَيْه يُديرُها فإن شاء فالإبرامُ أو شاء فالنَّقْضُ
وأموالُها في كفِّه إن يشأ يَبِعْ وإن شاء يُصْدِقْ وإن شاء فالقَرْضُ

يعقوب: بحَسْبِكَ، ما يعقوب عن ذاكَ سائلًا فجَلَّ الذي في كفِّه الجوُّ والأرضُ
على أيِّ دينٍ يا يهوذا تركتَه فليس لهذا المالِ طولٌ ولا عرضُ

يهوذا: على دِينِ مولانا ودينِ خَلِيلِه فللهِ منه الصومُ والنفْلُ والفرْضُ

يعقوب: لك الحمدُ يا اللهُ والشكرُ دائمًا فمِنْكَ الهُدَى والنورُ والجودُ والفَيْضُ

QaradawiBooks.com

يذهب يعقوب وأهله جميعًا إلى مصر، فيقابلهم يوسف في خدمه وجنوده ويتعانق مع أبيه ثمَّ يُخاطبهم:

يوسف: هَــذِهِ مِصْــرُ ومصــرٌ جَنَّــةٌ «فادخلوهــا بســلامٍ آمنينْ»
نيلُهــا شَــهْدٌ وتِبْــرٌ تُرْبُهــا وهواها يشرحُ الصَّدْرَ الحَزِينْ
فكُلُوا منهــا هنيئًــا فَرِحِينْ وَاشْــرَبُوا منها مَرِيئًا سائِغِينْ
هــذه مِصْــرُ ومصــرٌ جَنَّــةٌ في حَنَاياها لَكُم ما تَشْتَهُونْ
هي في ثَغْــرِ البَرَايا بَسْــمَةٌ وهْيَ للدُّنْيا كإنســانِ العُيونْ

يعقوب: اللهُ أكبــرُ، إنَّ الوقتَ صافانا والخيرُ أقبلَ والإسعادُ وافانا
الله أكبر، إنَّ البِشْــرَ باشــرنا والسَّعدُ ساعدنا، والدهرُ والانا
الله أكبر، صار القلبُ بعدَ أسًى كالطَّيْرِ فوقَ غصونِ الرَّوضِ جَذْلانا
كُنَّا كعِقْدٍ نَثِيرِ الحَبِّ مُفْتَرِقٍ يدُ القَضَا جَمَّعَتْنا بعدَ ما كانا
كُنَّا نُجومًا مضيئاتٍ بلا قمرٍ واليومُ أطْلَعَــهُ الرحمنُ فتَّانا
الشــكرُ لله لا نَسْــطِيعُه أبدًا ولو عَلَوْنا على الدُّنْيا بتَقْوَانا

بقي يعقوب وبنوه وأسباطُه وأهله في ظلِّ يوسف حتى مرض يعقوب.

يعقوبُ يعتريه المرض ويلازم الفراش.

يعقوب: ولدي، الوداعُ فقد رأيتُ مَنِيَّتي قرُبَتْ وسار النقْصُ في بُنيَانِي
فلقد تجمَّعَ شملُنا وتجمَّع الـ أَهْلُــونَ بعدَ تفــرُّقِ الأوطانِ
وإذا البدورُ تكاملت أنوارُها ذهبَ الكمالُ بها إلى النُّقصانِ

QaradawiBooks.com

وكذا الزروعُ إذا تكامل نُضجُها نزل الذُّبولُ بها بغَيْـرِ تَوَانِ
هو المرءُ كالمصباحِ والعُمْرُ غَازُه إذا فَنِي الغازُ انطفا منه نُوره

يشتدُّ به المرضُ فيجمع أولاده ويُوصيهم.

يعقوب: ولـــدي وداعًـــا وداعًـــا فقـــد شَـمِـمْتُ المَنونـا
فـــلا يَـــغُـــرَّنَّـــكـــم ما نِـلْـتُـمْ ومـا تَـقْـطِـفُـونَـا
فالدهـــرُ إن يَصْـفُ يومًـا تُبْصِـرْهُ فـي الغَـدِ طِينَـا
أو كـــان يـومًـا نَـعِـيـمًـا يُـقْـلَـبْ عَـذَابًـا مُهِينَـا
وربَّـــمـــا كـــان صُـبـحًـا لـك الصـديـقَ الخَدِّينـا
ومـا أتـى الـلـيـلُ حتَّى صـار الـعـدوَّ الـمُـبِـيـنَـا
إنِّـــي إلـــى اللهِ مـــاضٍ كمـــا مـضـى المُرْسَـلُونا
وغـايـةُ الـعَـيْـشِ مـوتٌ مهما لَـبِـثْـنـا الـسِّـنِـيـنَـا
مهمـا سـما المـرءُ مَيْـتٌ وعـــزَّ دُنْـــيـــا ودِيـــنَـــا
والـمـوتُ كـأسٌ سنُسْـقَا هُ كـلُّـنـا أجـمـعـونـا
فـــلا تَـــمـــوتُـــنَّ إلَّا وأنـــتـــمُـــو مـسـلـمـونـا
بـــالاتِّـــحـــاد تَـنَـالـو نَ كـلَّ مـا تَـبْـتَـغُـونـا
وبـالـشِّـقَـاقِ تـصـيـرو نَ ذِلَّـــةً صَـاغِـرِيـــنَـا

تَفِيض رُوح يعقوب إلى خالقها.

QaradawiBooks.com

أحد أولاده: الـمـوتُ لا يـتـركُ النَّبِيَّا ولا رسـولًا ولا وَلِـيَّـا
ولا سـعيـدًا ولا شـقـيَّا ولا فـقـيـرًا ولا غـنـيَّـا
ولا ذكيًّا ولا غبيًّا

ثانٍ: المَـرْءُ أم هـذه السـماءُ والبـدرُ والشـمسُ والضياءُ
والأرضُ والنـارُ والهـواءُ والبحرُ والطَّـوْدُ والفضاءُ؟!
فكلُّها ما لها بقاءُ

ثالث: لـكلِّ نـارٍ بـدتْ خمـودُ وإن تغالـى بهـا الوَقُـودُ
وكـلُّ ريـحٍ لـهـا رُكـودُ وإن تداعـى لهـا الوجـودُ
فجلَّ مولايَ لا يَبيدُ

رابع: الغِـرُّ مَـن غُـرَّ بالحيـاةِ وكلُّ حـيٍّ إلـى ممـاتِ
وكلُّ خيـرٍ إلـى فـواتِ وكلُّ جمـعٍ إلـى شـتاتِ
والناسُ عن ذاكَ في سُبَاتِ

ساء حال زليخا، ونال منها الوَجْدُ كلَّ منال، وصارت ترى في كلِّ شيء اسمَ يوسف، وتهب الأموالَ لمن يقول: رأيتُ يوسف.

زليخا: أرى اسمَ يوسفَ مخطوطًا على القَمَرِ وفي البروجِ العُلَا والأنجُمِ الزُّهْرِ
وفي الحوائطِ والجدرانِ مُرْتَسِمًا وفي الحدائقِ والأغصانِ والشَّجَرِ
خُطَّ اسمُ يوسفَ في الأكوانِ قاطبةً وفي فؤادي وفي سَمْعي وفي بَصَري
فالعَيْنُ عمياءُ إلَّا عند رُؤيتِه فإنَّها فوقَ عَيْنِ الصِلِّ في النَّظَرِ

QaradawiBooks.com

والأُذْنُ صمَّاءُ إلَّا عن مُحادَثَةٍ عنه ولو من نَسِيمِ الليلِ في السَّحَرِ
والأنفُ مَزْكومةٌ عن كلِّ رائحةٍ ما لم تكن رِيحَ ريَّا نَشْرِه العَطِرِ
والعَقْلُ في غَيْبَةٍ عن غَيْرِه أبدًا فلا يُفَكِّرُ فـــي نَفْعٍ ولا ضَرَرِ
والجِسْمُ صَلْدٌ فلا إحساسَ فيه ولو أمسى يُخَرَّقُ بالمِسمارِ والإِبَرِ
وإن سمعتُ ولو شَدْوًا فأحْسِبُه من نابحِ الكلبِ أو من ناهقِ الحُمُرِ
وإن نظرتُ فظُلْمـــاتٍ مُطَبِّقةٍ لا نورَ يَسطعُ من شمسٍ ولا قَمَرِ
فلو مَلَكْتُ الأراضي[1] والسماءَ معًا وسائرَ الجنِّ والأملاكِ والبَشَرِ
ولم يكن هو لي في ذاكَ ما رَضِيَتْ نَفْسِي بهذا العُلَا والمُلْكِ والسُّرَرِ
ولو فقدتُ حواسي كلَّها وغدا بجانبي فهْوَ كلُّ القَصْدِ والوَطَرِ
ما دام جَنْبي فجَنْبي نال راحتَه وإن يكنْ فَرْشُه من أخشَنِ الحَجَرِ

تقف فتاة مع زميلتها تُحَدِّثُها عن يوسف وجمالَه الساحر.

الفتاة: رأيتُ شَمْسَيْنِ هذا اليومَ قد بَدَتَا

الثانية: وأيُّ يومٍ تبدَّتْ فيه شَمْسَانِ؟!

الفتاة: رأيتُ شمسَ الضحى في حُسْنِ طلعتها ووجهَ يُوسف فالشمسانِ سِيَّانِ

تسمع زليخا اسمَ يوسف فتدور رأسها وتُنشد:

يـــا يوســفَ اســمُكَ خَمْرٌ قـلـبـي بـــه مُـســتـهـامُ
إن أَســمعِ اسْــمَكَ دارتْ بـــأُمِّ رأســـي حُـــمَـــامُ

(١) سكنت ياء (الأراضي) مع أنها منصوبة للضرورة.

QaradawiBooks.com

ونُـحْـتُ نَـوْحًـا يُحاكيه فـي الـرَّيـاضِ الـحَـمَـامُ
وكـاد تَـزهـقُ رُوحـي ويـعـتـريـنـي الـحِـمَـامُ
فـفـي فـؤادي حَـمـيـمُ وفـي الـحَـشَـا حـمَّـامُ

ثم تنادي زليخا للفتاة وتستعيدها قولها، وتعطيها بعضًا من الجواهر.

زليخا: لله درُّكِ من حسـناءَ شـاعرةٍ قد صيغ بيتُكِ من حُسْنٍ وإحسانِ
فردِّدِيهِ على سـمعي فإنَّ له خمرًا تَلَـذُّ به أفـواهُ آذاني

تعيد الفتاة البيت: رأيتُ شمسَ الضُّحَى في حُسْنِ طَلْعَتِها ووجْهَ يوسفَ فالشَّمْسَانِ سِيَّانِ

زليخا: سماحةً، يا فتاتي إنَّ في أذني أذًى يُغطي عليها بعضَ أحيانِ
فردِّدِيـهِ علـى أُذُنَـيَّ ثانيةً وهاكِ عِقْدِي من دُرٍّ ومَرْجَانِ

تعيد الفتاة البيت.

زليخا: عذرًا، أعيدي عليَّ القولَ ثالثةً لا فُضَّ فوكِ ولا نابتْكِ أزماني

تعيده الفتاةُ، وتعطيها زليخا جوهرةً غالية، ولكنها لا تمل من إعادته.

زليخا: لا تَسْأمي وأعيدي القولَ رابعةً فأنت مِنِّي كعَيْنِي أو كإِنسَانِي

الفتاة في تضايق: مِـرَارًا أعدتُ فلم تَسْـمَعي فهل تبتغينَ زئيرَ الأسـود؟
هبيني استعرتُ من الرعدِ صوتًا فهل يُسمع الصُّمَّ صوتُ الرُّعود

زليخا في أسف: يا ويحَ سوءِ الحظِّ كم شَقِيَتْ به نفسٌ وكم حُرِمَتْ نَفِيسًا غالي
كم ساق أَهْلِيهِ لساحةِ بؤسِهم سَوْقَ الشِّـياهِ لمُدْيَةٍ ونِصَالِ

QaradawiBooks.com

لو كرَّرتْ تلكَ الفتاةُ كلامَها ألفًا لجُدْتُ لها بسائرِ مالي
أَوَأَبْخَلَنَّ بظِلِّ مالٍ زائلٍ وأرى اسمَ يُوسُفَ غايةِ الأمالِ؟

بعد أن أصبحت زليخا فقيرة من كل شيء من مالٍ وصحةٍ وبصر، ذهبت إلى يوسف تستجديه وتستعينه على صدمة دهرها.

زليخا: رُحماكَ يا سيِّدي واعطِفْ على أَمَةٍ قد ضامها الدَّهْرُ ضَيْمَ الكاشحِ القَاسي
فأصبحت بعدَ نورِ العَيْنِ ذاتَ عمًى وأصبحت بعدَ مالٍ ذاتَ إفلاسِ
قد سوَّدَ الهمُّ وجهي بعدَ بَهْجَتِهِ تسويدَ أقلامِ كُتَّابٍ لقِرْطاسِ
والسُّقْمُ أذبلَ جِسْمِي بعدَ نَضْرَتِهِ يَسْرِي به سَرَيَانَ الرَّاحِ في الكَاسِ
والقلبُ أنضجه نارٌ مُؤجَّجةٌ كأنَّ حرَّ لظًى من حَرِّ أنفاسي

رجل يسمع زليخا وهي تقول ليوسف: رحماك يا سيدي، فيكلم صاحبه.

الرجل: ما أعجبَ الدهْرُ صارَ الحالُ مُنْعَكِسًا إنَّ الزمانَ لعَمْري شَرُّ عَكّاسِ[1]

* * *

(١) ويبقى جزء يسير مفقود من المسرحية، عسى الله تعالى أن يعثرنا عليه.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

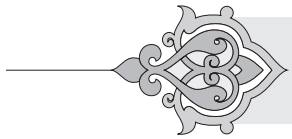

الفهرس

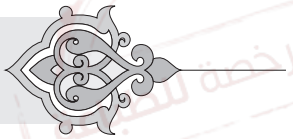

- مقدمة ٧
- الإهداء ١١
- أشخاص الرواية ١٣
- الفصل الأول ١٧
- الفصل الثاني ٢٩
- الفصل الثالث ٤٥
- الفصل الرابع ٥٥
- الفصل الخامس ٦٩

* * *

غير مرخصة للبيع

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية